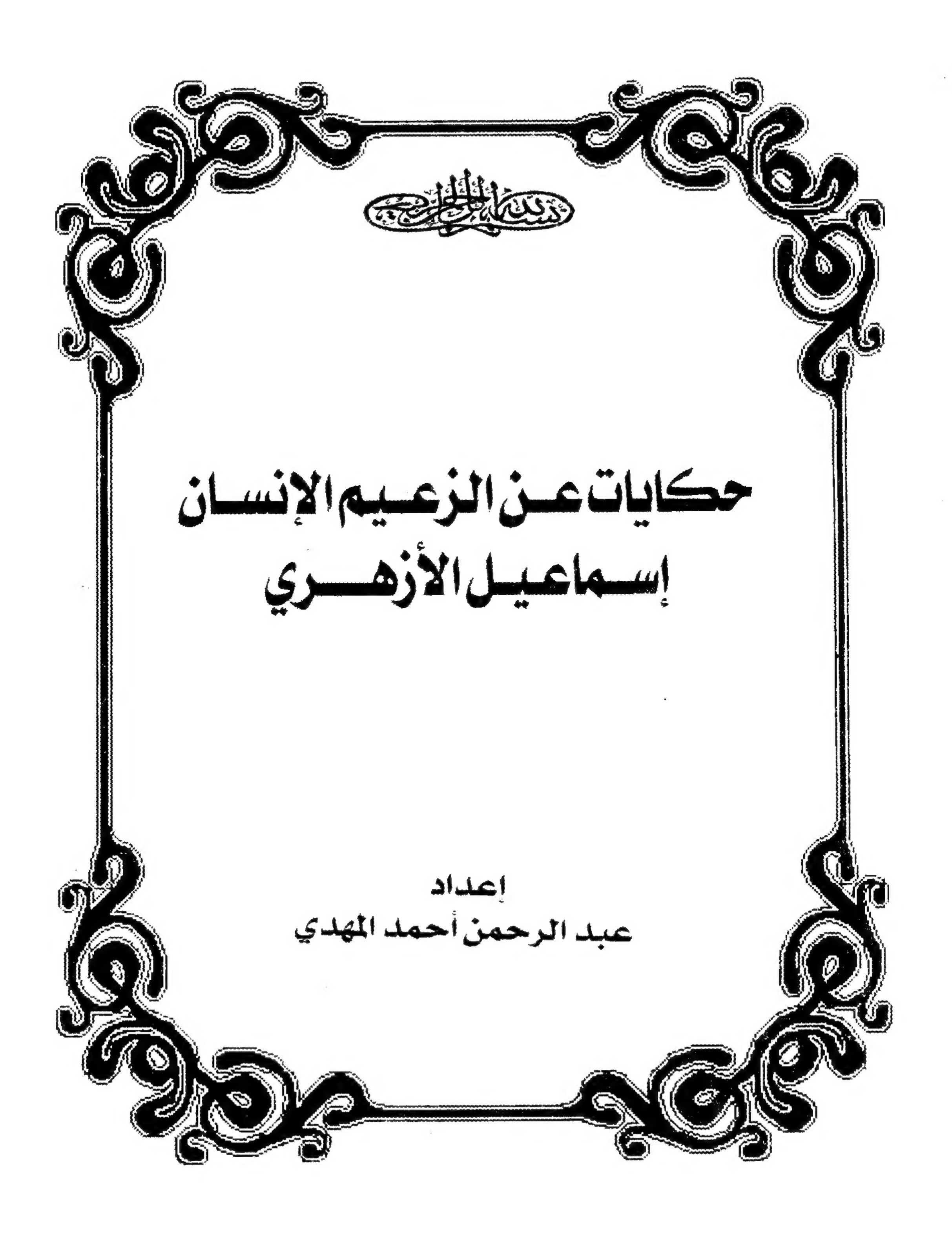

المرتضى
للكتب السودانية



حكايات عن الزعيم الإنسان إسماعيل الأزهري

إعداد
عبد الرحمن أحمد المهدي

حكايات عن الزعيم الانسان

اسماعيل الازهري

اهداء

- الى روح والدي اليوزباشي أحمد المهدي أحمد الذي إستشهد في حادث إنفجار بفرقة المهندسين وأنا في طفولة مبكرة ، وقد ترك لنا سيرة نفخر بها . كما ترك مورد رزق مستمر أعاننا في مراحل حياتنا وحتى اليوم بعد أن تخطينا سن المعاش .

- إلى روح والدتي المرأة الحكيمة التي صبرت على تنشئتنا وأحسنت تربيتنا وكانت فخورة تتابع نجاحنا في الدراسة وتقدمنا بعد ذلك حتى بلغنا بحمد الله أرفع الوظائف في الدولة.

أسأل الله لهما المغفرة والرضوان ، كما أمر جلت قدرته

اقول « رب أرحمهما كما ربياني صغيرا »

- والى روح الزعيم الانسان إسماعيل الأزهري القدوة الحسنة طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه .

عبد الرحمن أحمد المهدي

حكايات عن الزعيم الانسان

اسماعيل الازهري

اعداد عبد الرحمن احمد المهدي

المحتويات



الفصل الأول

مقدمة

لو قدر الله لهذا العمل أن يصل إلى أيدي القراء فسيكون التجربة الأولى لي في الكتابة الجادة التي تنشر على الناس ، ولا أخفي تهيبي لهذا الأمر فلا أدري إن كان وقعه في النفس طيباً كما أرجو ، أم يقابل بالنفور والتبكيت ، والواقع أني هنا لست مؤلفاً بل راويا إن صح التعبير فهذه الصفحات لا تضم شيئاً أنسبه لشخصي فكل ما أنقله للقارئ حقائق وقفت عليها بشخصي أو تأكدت منها وحرصت على ذكرها دون أية إضافات من خيالي .

هذا ، وقد عرف عني زملائي منذ عهد الصبا الولع بمحاكاة الآخرين سواء الأساتذة أو غيرهم ، وقد حباني الله بموهبة حفظ الأحاجي وترديد ما يعجبني من الحكايات التي أسمعها بتفاصيلها الدقيقة ، ولشدة إعجابي بالرئيس إسماعيل الأزهري ظللت أردد كثيراً مما تجدونه في الصفحات المقبلة ، فكان أن ألح علي عدد من الأقرباء والأصدقاء ممن إستمعوا إلي بأن أسجل ما قصصت عليهم لعلني بذلك أساهم في إلقاء الضوء على جوانب هامة من شخصية الزعيم الخالد وقد يساعد ذلك أبناء الجيل الحاضر لمعرفة بعض أسباب تعلق الجماهير به .

وترددت كثيراً في ولوج هذا الميدان لعلمي بأن فن الكتابة يحتاج إلى ذخيرة لغوية وذوق فني ادبي ، وإلمام بقواعد النحو . فإذا كنت قد نجحت في جذب من استمع إليّ وأنا أقص الحكايات عن شخصيات مختلفة وحوادث متباينه ، فلا شك أن نبرات الصوت والتعبيرات الحركية بالأيدي وعضلات الوجه ، وربما الضحكات

وهكذا .. كل هذه أدوات تساعد الممثلين في توصيل ما يريدون للمشاهد والمستمع مما لا يتوفر للكتاب ، كما أن الحديث شفاهة لا يرقى في الجدية إلى مستوى الكلمة المكتوبة ناهيك عن الكتابة عن الرجل الذي أفلح في قيادة البلاد في طريق العزة والكرامة في وطنية وتجرد وأمانة.

وهأنذا أبدأ بعد أن استخرت الله سبحانه وتعالى سائلاً إياه التوفيق ورأيت التركيز على الجوانب الإنسانية ، فقد إستأثرت السياسه بكثير مما كتب عن الزعيم الخالد الرئيس إسماعيل الأزهري وأعترف أنني لست مؤهلا للإفاضه في ذلك ، هذا ولربما لا يكون في بعض ما أسرده جديد لأن سيرة الرجل كتاب مفتوح الصفحات والسابقون في فن الكتابة كثيرون ولا أشك في أن الآلاف من القراء وغيرهم يلمون بكم هائل من الحكايات التي تؤكد عظمة الرجل وتفسر أسباب نجاحه في مشوار الحياة وتعلق الجماهير به في حياته وترديد الذكريات الجميلة عنه بعد رحيله إلى دار البقاء، فالذين عاصروه يعرفون الكثير عن هذا القائد الشعبي الذي افتقدناه في وقت كنا أحوج ما نكون فيه لحنكته وحكمته .

وفي مناسبات مختلفة وفي لقاءات لي مع بعض الشخصيات السودانية المرموقة تطرق الحديث إلى شخصية الرئيس إسماعيل الأزهري فذكر السيد / يوسف بدري عميد مدارس الأحفاد الذي كان وثيق الصلة به وبينهما مودة لم تكن خافية وكان عندما يضمهما مجلس يقول الرئيس « معي يوسف وأنا يعقوب » وهذا يعني أنه كان يصطفيه مثلما كان لسيدنا يعقوب في نفسه مكانة خاصة لإبنه سيدنا يوسف ، وذكر السيد / يوسف بدري بأن « إسماعيل الأزهري رجل دولة »

فسر هو ما يعنيه قائلا « إنه كان يهتم بإعداد الكوادر وكان يصرف شؤون الدولة على أساس قومي لا على أساس حزبي متوخيا العدل ».

والأستاذ الهادي أبوبكر اسحق من كبار رجال التعليم في بلادنا زامل الرئيس في مجال التعليم وكانت بينهما صداقة متينة ، قال « كان إسماعيل الأزهري بسيطا في حياته ويعالج الإمور المستعصية في هدوء وكان مجاملا كما كان يتمتع بالفراسة موهوباً في إستقراء المستقبل » .

والأستاذ إسماعيل العتباني وهو كما نعلم من أوائل المثقفين السودانيين الذين ولجوا ميدان الصحافة فهو صاحب صحيفة الرأي العام زائعة الصيت وقد تتلمذ على الأستاذ إسماعيل الأزهري في مرحلة الدراسة الوسطى فقد وصف أستاذه الرئيس إسماعيل الأزهري « بانه كان مدرسا ناجحا يتمتع بالحكمة وحدة الذكاء وحضور البديهة ».

وسرد لي الأستاذ محمود الفضلي زميل الرئيس في مسيرة الكفاح الوطني سرد لي حكايات عن الرئيس تدل على قوة إحتماله «وتمتعه بقدر فائق من الصبر ومعالجته للإمور بأسلوب المعلم وأنه كان يتمسك بجبر الخواطر ولم يكن عوافا ».

أما الأستاذ بشير محمد سعيد مؤسس صحيفة الأيام فقد الف كتابا قيما عن الزعيم الأزهري وعصره» أنقل هنا ما ورد في صفحتي ٩ و ١٠ من ذلك الكتاب « لقد كان الزعيم الأزهري عليه رحمة الله ورضوانه رجلا تقيا يؤمن بالله وكتابه ورسوله ، يؤدي صلاته في خشوع ويصوم شهر رمضان ويحج بيت الله الحرام ويتزكى ويرتل القرآن ترتيلا ، وكان رب أسرة رفيع الشان عظيم الوفاء لزوجته

الفضلى ، ويحب أنجاله ويحسن تربيتهم ويغمرهم بعطفه يؤانسهم يعلمهم ، يصادقهم ويغرس في نفوسهم الخلق العظيم - الصدق والأمانة والشجاعة والتواضع ، وكان عظيم الوفاء لأصدقائه شديد الإحترام لمواطنيه لا يتكبر ولا يبخل بيته مفتوح وضيوفه سيل لا ينقطع» .

أكتفي بهذا القدر من آراء الأساتذة الأجلاء وأرجو أن تثبت الحكايات التي نسجلها في الصفحات التالية صدق ما جاء على ألسنتهم وما شهد به غيرهم ، واستميح القارئ عذرا إن رأي أن سرد الحكايات ليس مرتباً بتسلسل منطقي فالواقع أن كل واحدة منها تدل على مميزات متداخلة بحيث يمكن تصنيفها بترتيب مختلف .

نسب الرئيس :

وقبل الإنتقال إلى قسم آخر رأيت من المناسب ان أعرف القارئ بنسب الرئيس فالكثيرون لا يعرفون اكثر من أنه حفيد السيد اسماعيل الولي مؤسس الطريقة الإسماعيلية إحدى الطرق الصوفية المشهورة بالسودان ، وقد أخذت المعلومات التالية من السيد/ أحمد اسماعيل أبو« والد الدكتور الاخصائي صديق أحمد إسماعيل » وهو من أقرباء الرئيس المقربين اليه :

الرئيس هو إسماعيل بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن السيد إسماعيل مؤسس الطريقة الإسماعيلية ، هذا وكان السيد أحمد والد الرئيس قاضياً شرعياً وقد حصل على الشهادة العالمية من الازهر الشريف بالقاهرة وعرف عنه أنه كان ضليعاً في علم المنطق ، أما جد الرئيس السيد إسماعيل فقد شغل منصب مفتي

الديار السودانية . وبالطبع كان اختياره مبنيا على غزارة علمه بالشؤون الشرعية ، وأما جد جدد السيد إسماعيل فقد كانت له كرامات باهرة فاشتهر بالولاية إستناداً إلى ما تميز به بين أهل زمانه بالورع والتقوى والتصوف ، وكما ذكرنا آنفا هو مؤسس الطريقة الإسماعيلية التي لها أحباب ومريدون كثيرون في أنحاء السودان المختلفة ولكن مركز ثقلها هو غرب السودان وخاصة في كردفان .

أما نسب الرئيس من الأم فوالدته هي السيدة / ست البنات إبنة السيد إسماعيل بن السيد عبد القادر الكردفاني الذي كان ايضا مفتيا شرعيا للديار السودانية في زمانه وكان ذلك قبل اختيار السيد اسماعيل جد الرئيس من ناحية الأب لهذا المنصب الرفيع.

ولد الرئيس إسماعيل الأزهري بأم درمان يوم الثلاثاء الخامس من شهر رجب الأغر عام ١٣١٨هجرية ووافق ذلك عام١٩٠٠ميلادية، وكان سيادته يقول «انا مولود سنة صفر» وكان جده يسميه « إسماعيل أبا المعارف» ، ولم يكن غريباً في الجو الأسري الذي احاط بزعيمنا أن تحلى في تربيته ونشأته بالخصال الحميدة والخلق الرفيع.

أسـرتـه :

للرئيس خمس بنات كان يتابع عن قرب تقدمهن في الدراسة ويحرص على حضور الحفل السنوي المعروف بيوم الآباء وعندما صار رئيسا لمجلس السيادة كان يذهب بالاتفاق مع إدارة المدرسة قبل يوم من الحفل العام بصفته والد التلميذات لا بصفته الرسمية ، وفي مدارس الراهبات كان يقابل بالترحاب من القساوسة

والراهبات المشرفين على المدرسة ، وهذا الحال كان سائدا كذلك عندما كان في المعارضة ، وفي أيام الحكم العسكري برئاسة الرئيس عبود .

وللرئيس ولد واحد هو (محمد) والطريف ان اسمه في شهادة الميلاد هو « إسماعيل الأزهري الكبير» هذه الاسماء الثلاثة مكتوبة في خانة إسم المولود ، ولعل ذلك يدل على أن الرئيس كان يرجو لإبنه مستقبلاً عظيماً مثل أجداده ، وتقول السيدة سامية إحدى كريمات الرئيس أن والدهن لم يضجر من تتابع ولادة خمس بنات وكان يقول « البنت عندنا تساوي عشرة أولاد» والصغري منهن أسماها « جلاء» فقد كانت ولادتها في عام ١٩٥٥ الذي إكتمل فيه جلاء القوات الأجنبية من السودان ، وبعد ذلك عندما كانت الوالدة في حالة حمل كانت « جلاء» تقول ان والدتها سوف تلد ولداً إسمه « محمد» وهكذا إشتهر الأخ بهذا الإسم بين أفراد العائلة رغم الإسم الرسمي المسجل في شهادة الميلاد.

وبالطبع ليس بمستغرب حب السيد الرئيس لإبنه الوحيد ، سألته مرة أن كان يرى فيه ما يذكره بأيام طفولته ، فقال إنه يشبهه في الكثير وأضاف « إن شاء الله يتمكن من إكمال ما لا تسمح الأيام لي بتحقيقه» ، وتأكيداً لمحبته لإبنه قالت شقيقته السيدة سامية من الملاحظ أن الرئيس كان يصحب معه إبنه محمد وهو صغير السن في مناسبات كثيرة رسمية وذلك قد يكون منتقدا خاصة وهو الرجل الذي كان يحرص على عدم خرق النظم والمراسم ، ولعل ذلك التصرف يؤكد بالإضافة للحب الأبوي أنه كان يرغب في إعداده لشئ كبير .

كنت ذات مرة مع الرئيس في منزله فدخل عليه عبد العزيز محمد صادق في

زيارة عائلية ومعه أطفاله وكانت تربطه صلة مصاهرة مع أسرة الرئيس ، وأثناء الجلسة ظهر محمد ولد الرئيس وهو يجري من داخل المنزل وكان عندئذ في حوالي السابعة من عمره ، ثم توقف فجأة وقفل راجعاً فناداه عبد العزيز وكرر النداء ليشعره بأن الجالسين ليسوا غرباء ويريدون مصافحته ولكن محمد لم يرد على النداء فقال الرئيس لعبد العزيز «سيبه، أى أتركه ، وبعد ثلاثة دقائق على الأكثر سوف يأتي من تلقاء نفسه لابساً بدلة كاملة » وبالفعل بعد بضع دقائق جاء محمد لابساً بدلة كاملة وعلى عنقه ربطة في شكل الفراشة ، فقلت للسيد الرئيس أنت خبير بطباع إبنك فقال نعم – عندما ظهر محمد في المرة الأولى فوجئ بوجود عبد العزيز وأولاده في مظهر جميل فأراد محمد ألا يكون أقل منهم في اللبس ولذلك جرى لتغيير ملابسه وجاء مسرعاً بالبدلة الكاملة.

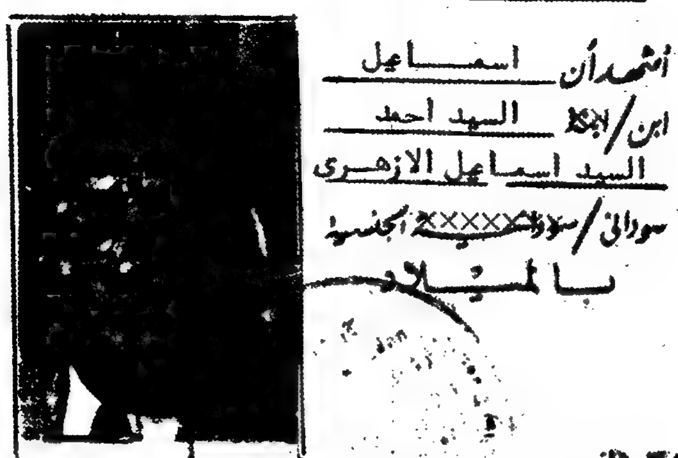
هذا هو الأب ذو القلب الكبير الذي لا تصرفه مشغوليات السودان العامة عن تربية أولاده وملاحظة طباعهم وتصرفاتهم بدقة وتكييف التعامل مع كل منهم ، وأكدت كريمته السيدة سامية بأن الوالد رغم إزدحام مشغولياته القومية كان بوصفه رب الأسرة حريصاً على متانة صلته بافرادها وكان يحرص على تناول الغداء معهم وكانوا ينتظرونه حتى عودته من العمل ولعلمه هو بذلك كان إذا شعر بإحتمال تأخير رجوعه من المكتب يتصل تلفونيا بمنزله ليقنعهم بتناول الغداء وعدم إنتظاره.

الدستور/م/١٧

جمهورية السودان
وزارة الداخلية
مصلحة الجوازات والهجرة والجنسية

شهادة الجنسية بالميلاد

النمرة ١٦٨٤٢٥
الاسم بالكامل واللقب اسماعيل السيد احمد السيد اسماعيل الازهري



أشهد أن اسماعيل
ابن/ابنة السيد احمد السيد اسماعيل الازهري
سوداني/سودانية الجنسية
بالميلاد

مكان الاصدار الخرطوم
التاريخ ٣١-٣-١٩٦٥
ع/وزير الداخلية

الفصل الثاني

عاشق الديمقراطية

الرئيس إسماعيل الأزهري من أوائل السودانيين الذي أتيحت لهم الفرصة للتعليم الجامعي وكان ذلك ضمن نخبة من زملائه المعلمين الذين بعثت بهم الحكومة للجامعة الأمريكية ببيروت وحصلوا على درجة البكالوريوس حيث تلقوا مزيداً من علوم التربية والتعليم كما درسوا النظم الدستورية والسياسية في عدد من البلاد المتقدمة ، وتشبعت روحه بالنظام الديمقراطي وقارنه بما وقر في نفسه من تعاليم الإسلام السمحة واستيقن بان الشوري التي تقوم عليها النظرية الديمقراطية هي في الواقع أساس العمل في الإسلام، فكتب مؤلفه الشهير « الطريق إلى البرلمان» شرح فيه بإسلوب المعلم الخطوات العملية التي يمكن أن نتبعها في بلادنا ليكون تطبيقنا للنظام الديمقراطي تطوراً مقبولاً لما إعتاد عليه الناس في ممارساتهم اليومية ، ننقل هنا ما ورد في الصفحات رقم ٥ ، ٦ ، ٧ من الكتاب: « والنظام البرلماني بأوضاعه المعروفة جديد على أمم الشرق ، سواء التي أخذت به منها ، أو التي تريد الأخذ به مندفعة في تيار المدنية الحديثة ، وقد واجه جيلها الحاضر هذا النوع من النظام بدون تدريب سابق ، فلم يستفيد منه الفائدة المرجوة .

ومن رأيي أن يعد صغار هذا الجيل والأجيال القادمة في المدرسة ، في سن الطفولة ، وبعد المدرسة في سن الرجولة ، إعداداً يتمشى مع النظم البرلمانية حتى تختلط بالدم وتمتزج بالروح وتصبح جزءاً من النفس لا يتجزأ فتنشأ مجبولة على تقديس القوانين مفطورة على حب النظام ».

« ومن وسائل نشر الاساليب البرلمانية إنشاء الجمعيات في المدارس والمعاهد والكليات لممارسة النشاط المدرسي وتسييرها وفق النظم البرلمانية حتى تنشأ الأجيال المقبلة عريقة فيها ».

«ومن وسائل نشرها أيضا تشكيل جمعيات برلمانية التكوين تنتظم أهل الحرف والمهن المتشابهة والهوايات المتحدة والميول المؤتلفة . فقد أصبح كل مواطن يدرك ماله من حقوق وما عليه من واجبات نحو نفسه ونحو أمته ، ويدرك أيضا أن الفائدة العامة لا تتحقق إلا بالعمل المشترك في جماعات تخضع لدستور وتسير على نظام– والجماعة أو الجمعية في أبسط صورها أفراد يربطهم مبدأ واحد أو غرض مشترك ولهم نظام معين يسيرون عليه لإدراك هذا الغرض وتحقيق ذلك المبدأ».

«وقد تنشأ الجمعية لأغراض تعليمية كالجمعيات المدرسية أو لأغراض إقتصادية كالشركات والنقابات والإتحادات للعمال والصناع ، أو لأغراض إجتماعية كالأندية الإجتماعية أو لأغراض دينية كالاخوان المسلمين أو الشبان المسيحيين ، أو لأغراض سياسية كالأحزاب السياسية».

وجاء في صفحة ٢١ من الكتاب ما يلي : « .... ولكل برلمان تقاليد تنشأ مع الزمن يقدسها الأقدمون ويتعلمها المحدثون ، والعضو الحديث في البرلمان – كما يقولون – كالتلميذ الحديث في المدرسة عليه أن يتعلم الكثير . وإن أصول الحياة البرلمانية ليست غريبة على الشرق فقد جاء في كتاب الله الكريم كثير من الآيات الدالة على أن نظام الشوري أساس العمل في الإسلام ، وكثير من الأحاديث والسير شاهد على ذلك ، يتضح منها مبدأ الشوري والأخذ برأي الأغلبية ، وهذا أصل الحياة البرلمانية .

« ولعل أصول الحياة البرلمانية تسربت من الشرق الى الغرب الذي اضفى عليها من التفاصيل والنظم ما جعلها ملائمة له . وها نحن اليوم ننقل الحياة البرلمانية من الغرب إلى الشرق فلابد أن نجري فيها تعديلات لتناسب محيطنا وتقاليدنا ومقدار تقدمنا » .

في بيت الرئيس :

هذا وقد اتيحت لي فرصة تشرفت فيها بلقاء السيدة الفضلي حرم السيد الرئيس بمنزلهم بحضور شقيقها الدبلوماسي المعروف عيسى مصطفى أكدت سيادتها بان الرئيس مع اسرته في بيته كان بسيطا لا يختلف عن المواطن العادي وانها كانت تعينه على ذلك ولا ترهقه بالمطالب على اساس مركزه الرئاسي . وقد لاحظت بنفسي ان اثاثات المنزل لاتتعدى المستوى الموجود في الأسر متوسطة الحال . فاكدت سيادتها انها كانت تحب اقتناء الاثاثات المحلية الصنع وبالطبع كان في مقدورها المطالبة بالفاخر المستورد ولم يكن مستحيلا الاستجابة لرغبتها . وكان الأكل في منزلهم عاديا ليس فيه ما يلفت الإنتباه .

وفي ذات مرة كان السيد الرئيس على موعد في عصر ذلك اليوم لإلقاء كلمة في احدى المناسبات . وعند مغادرته المكتب بالقصر الجمهوري آخر النهار كنت بصفتي مدير مكتب سيادته لا زلت اشرف على طباعة الكلمة التي اجاز مسودتها فإتفقت معه ألا يتاخر هو بالمكتب بسبب الطباعة ووعدته باللحاق به في منزله بحي ودأرو بام درمان وتسليمه الكلمة المطبوعة وانا في طريقي لمنزلي بحي أبي روف الذي لا يبعد كثيرا عن منزله . وبالفعل لحقت به بعد حوالي ثلاثين دقيقة ولم تبلغ الساعة

عندئذ الثالثة بعد الظهر طرقت الباب وفتح الرئيس بنفسه وكان يرتدي الجلابية حافي الرأس ، هذا منظر مألوف ، إستلم سيادته المذكرة ودعاني لتناول الغداء معه فاعتذرت باديً الأمر ولكنه ألحّ عليَ ، فقلت له هل هذه الدعوة خالصة من ضميرك أم أنك قلتها تأدية واجب ، فقال لي « دعوة جادة من ضميري» سألته « من يتناول معك الطعام » قال « إبني محمد ولكنني لا أستبعد أن يكون أحد أخواله بالداخل وأنا لم ألتق به حتى هذه اللحظة» فقلت له « إذن هذه فرصة لا أضيعها لأرى ماذا يأكل الرؤساء في بيوتهم ».

وكما توقع الرئيس ظهر أحد أشقاء حرمه فتناولنا الغداء أربعة أشخاص وكان غداء بمستوى عادي ، صنف واحد من الطبيخ وصحن أرز مفلفل وسلطة خضروات وقليل من لحم محمر ، ولكن الرئيس كان يحاول تفخيم الوجبة فيقول هذا غداء مغذي يحتوي على الأصناف بطريقة علمية ، نشويات ، بروتينات . خضروات ، وانصحك يا سيد عبد الرحمن أن تشارك فيه من حين لآخر ، وبالمناسبة لم يقدم أي نوع من الحلو في نهاية الأكل ، وعندما أخذت الشفطة الأولى من الشاي شعرت بأنها تكاد تسبب لي جرحاً في الحلقوم فلاحظ الرئيس أنني ضغطت بيدي على رقبتي فضحك وقال لي هذا زنجبيل وصار يحدثنا عن فوائده ، ولاحظت بعد ذلك أنه أثناء اليوم بالقصر الجمهوري يفضل شرب الزنجبيل المخلوط باللبن الحليب وكان يقدمه لزواره ممن يعتقد أنهم يستسيغونه أمثال الشيخ علي عبد الرحمن .

أكدت السيدة حرم الرئيس وكريمته بأن الديمقراطية كانت تجري في عروقه وكان يمارسها في سلوكه اليومي مع أسرته فقد كان يتشاور معهم فإذا إختلف

الرأي يأخذ برأي الأغلبية حتي لو كان رأيه مع الأقلية ويترك للأيام أن تؤكد الرأي الصائب.

مع السيد د. مأمون سناده :

السيد مأمون سناده رجل القانون الحاصل على أرفع الشهادات العالمية في مجاله لمع في السياسة مبكراً وكان النائب المرموق عن الدائرة التي ضمت بورتسودان وسواكن ثم أصبح سكرتير الهيئة البرلمانية للحزب الإتحادي وكان مقرباً جداً من الرئيس إسماعيل الأزهري ، وعلى الرغم من صغر سنه آنذاك مقارنة ببعض الكبار من قادة الحزب إلا أن الرئيس كان يوكل إليه رئاسة كثير من الجلسات المشتركة التي تضم الهيئة البرلمانية والمكتب السياسي للحزب في وجود الرئيس نفسه.

قلت للسيد مأمون يبدو تصرف الرئيس وكأنه ديكتاتور في بعض الحالات التي يصدر فيها بيانا « إلى من يهمه الأمر سلام » يعلن فيه فصل أحد الأعضاء من الحزب فما تفسير ذلك ؟.

قال السيد مأمون « لم أعرف في حياتي شخصاً أكثر ديمقراطية من السيد إسماعيل الأزهري ، فهو لا يتخذ قراراً إطلاقاً إلا بعد عرض الموضوع على قيادة الحزب ويكون القرار في الواقع صادرا من القيادة ، وفي أغلب الحالات التي يتم فيها الحوار بين الأعضاء لا يبدي رأيه الشخصي حتي لا يتأثر به من لايريدون مخالفته ، لهذا لا يصرح هو برأيه إلا عند التصويت لمعرفة الرأي الغالب ، ولكن في المسائل الكبيرة يبدي رأيه أثناء المناقشة ولا يتعصب له ، هذا وفي الحالات النادرة التي

أصدر فيها الرئيس إعلانا بفصل عضو من الحزب فإن القرار يكون أصلاً قد صدر من قيادة الحزب بعد أن تبين إختلاف ذلك العضو جذرياً مع مخططات الحزب وتوجهاته ، وعمد إلى نشر إنتقاداته وخلافاته في الصحف ورغم تنبيهه للخطأ في ذلك المسلك تمادى فيه مما برهن على عدم إقتناعه بمبادئ الحزب، فأصبح إبعاده من الحزب نتيجة حتمية .

مع دكتور جعفر كرار :

الدكتور جعفر كرار من العلماء البياطرة المرموقين في بلادنا وفي المحافل الدولية، تتلمذ د. جعفر على الأستاذ إسماعيل الأزهري في مرحلة الثانوي كلية غردون آنذاك ، وكان معجباً بأستاذه لغزارة علمه ولوطنيته ، ولا يزال يذكر انه عندما وافق برامبل الإنجليزي المتجبر مفتش مركز أم درمان على إقامة سينما برامبل في ميدان البوستة بأم درمان ، أرسل الأستاذ إسماعيل الأزهري برقية إحتجاج لبرامبل ينتقد فيها قرار المفتش لأن ذلك الميدان يعتبر متنفساً للمواطنين وسط المدينة ، ولهجة التحدي تلك جعلت الأستاذ في نظر التلاميذ بطلاً من الأبطال.

وظل إحترام د. جعفر للازهري ينمو مع الايام وهو يتابع صموده وصعوده السياسي فجعله قدوة له ، قال لي د. جعفر أنه كتب في الصحف قبل سبعة عشر عاماً أنه لا يعرف في حياته شخصاً مثل إسماعيل الأزهري جمع بين عشقه للديمقراطية وحبه للسودان ، فقد كان يؤمن بمبدا الشوري وقال د. جعفر انني أعرف أنه كان من حين لآخر يجتمع مع مجموعة من المواطنين غير الحاكمين في من يثق في صدقهم وغزارة معلوماتهم للتعرف على الاحوال العامة ويستنير بآرائهم

في ما يمكن عمله للصالح العام ، وقال وبالطبع كثيرون يحبون السودان ولكنهم لا يؤمنون بالديمقراطية.

وكان السيد إسماعيل الأزهري معجباً بنبوغ دكتور جعفر ويثني على شغفه بالبحث العلمي ، وكان يحرص على حضور المؤتمرات السنوية التي تعقدها الجمعية البيطرية برئاسة دكتور جعفر كرار ويتابع تنفيذ قرارات مؤتمراتهم .

سألت دكتور جعفر- وهو وكيل الوزارة ، ونعرف الود بينه وبين الرئيس أزهري ، ألم يطلب منه تقديم المساعدة لمن يخصصهم من المواطنين ؟ أكد دكتور جعفر أن الرئيس أزهري لم يكن يتدخل لإعطاء شخص غير ما يستحقه ، وقد يتصل مستفسراً عن شئ لمعرفة الحقيقة ولكنه لا يطلب معاملة استثنائية لاي فرد وتفسير ذلك أن أزهري يعتبر نفسه أب الجميع فلا يعقل أن يفضل الأب أحد أبنائه فيظلم إبنا آخر ، قصصت على دكتور جعفر بعض الحكايات الواردة في هذه الصفحات وقلت له أخشي ألا يصدقها البعض فقال لي هذا قد يحدث فعلاً ولكن الذين يعرفون الأزهري وديمقراطيته التي تسري في عروقه وحبه للعدل لخوفه من الله ، فهؤلاء يصدقون كل ما يذكر عن وطنية الزعيم وتواضعه وصفاء سريرته ، أما الآخرون فلا يهم ما يعتقدون .

وتأكيداً لما ذكره دكتور جعفر فيما تقدم أذكر إنني حضرت إجتماعا بمنزل السيد محمد الأزهري مدير مصلحة المخازن والمهمات ، عم السيد إسماعيل الأزهري وكان عدد الحاضرين حوالي عشرة أشخاص أذكر منهم الأستاذ صلاح الدين المليك والأستاذ محمد توم التيجاني ، والدكتور عبد المنعم وصفي والسيد عبد الرحيم

شداد والأستاذ علي شمو إلى جانب عم الرئيس وتطرق الحديث إلى مواضيع شتى وفي أغلب الأوقات كان الرئيس يستمع للمتحدثين يبتدرون الكلام أو يجيبون ويعلقون على بعض إستفساراته كما كان يرد على بعض تساؤلاتهم.

مع المهندس أحمد الطيب بابكر :

السيد أحمد الطيب بابكر من أوائل المهندسين السودانيين المرموقين وهو رجل أعمال مشهود له بالكفاءة في المنشآت الهندسية . تتلمذ السيد أحمد في مرحلة الثانوي كلية غردون على الأستاذ إسماعيل الازهري . وكان مبرزا في علم الرياضيات مما حبب فيه أستاذه الذي تخصص في هذه المادة وكان أحمد يسكن في داخلية ونجت ولما نال الأستاذ الأزهري ترقية كلف على إثرها بالإشراف على داخلية كرومر تدافع الطلبة للسكن فيها ومن بينهم أحمد وقال كان يعاملنا معاملة الوالد لأبنائه وأجزم أنه لم يعاقب بالجلد أي طالب كما كان يفعل زملاؤه الأساتذة . كانت ميول أحمد الطيب السياسية متطابقة مع السيد إسماعيل الأزهري وهو في قيادة مؤتمر الخريجين وعندما تأسس حزب الأشقاء إنخرط فيه تلقائيا .

قال السيد أحمد كان السيد إسماعيل الأزهري متواضعا بسيطا في لبسه وفي معيشته وقد أتيحت فرصة تناول الغداء معه بمنزله عدة مرات وفي كل مرة إقتصر الطعام على صنف واحد من الطبيخ وسلطة الخضروات وقد وضعت علي الصينية بعض لفات الكسرة وعلى كل لفة قطعة من الرغيف . لم يكن يحب التفاخر بالمظاهر وأقوى شاهد على ذلك ما ذكره الأستاذ علي محمد إبراهيم المحامي الذي كان رئيس لجنة التحقيق مع الرئيس أزهري في ما زعموا من فساده . كان هو والسيد أحمد

الطيب في رحلة بالطائرة بين لندن والخرطوم فقال له الأستاذ علي أن أعضاء لجنة التحقيق الذين زاروا منزل الرئيس ازهري للتثبت من مظاهر الفساد المزعوم إندهشوا للمستوي المتواضع لكل محتويات المنزل من الاثاثات - الكراسي والستائر والمفروشات عليها والدواليب والفرش على الارض ان وجد ومحتويات المطبخ . اقسم الأستاذ علي محمد ابراهيم ان كل شئ كان دون مستوي نظيره في منزله هو رئيس لجنة التحقيق !!

وعن ديمقراطية الرئيس إسماعيل الأزهري قال السيد أحمد الطيب كان الرئيس ازهري يكره النظم الديكتاتورية وكان يتمسك بمبدا الشوري . وكان لا ينفرد بالقرار بل ياخذ بما يتفق عليه قادة الحزب وكان يحدث في بعض الأحيان انه بعد التعرف على وجهات النظر المختلفة ينتهي النقاش المستفيض بان يفوض القادة الرئيس ازهري لإتخاذ القرار المناسب. هذا وقد كان يستنير باراء من يثق في حكمتهم والمامهم الواعي بالاحوال العامة . امثال مجموعة من آل ابو سن الشيخ محمد حمد والشيخ عبد الله والشيخ على عبد الرحمن والشيخ محمد صديق طلحة والاستاذ الخاتم محمد عثمان وعدد من الشباب .والزعيم ازهري كان لايعرف الحقد فمثلا الناس يعرفون قصة النواب الاتحاديين الأربعة الذين صوتوا مع المعارضة وأسقطوا في البرلمان بندا صغيرا من بنود الميزانية التي قدمتها الحكومة فلم يتردد السيد ازهري في تقديم استقالته رغم محاولات الحادبين علي المصلحة العامة بان يسحب فقط ذلك البند من الميزانية ولكن السيد أزهري رأى أن ما فعله النواب كان بمثابة فقدان الثقة في الحكومة وعليه إرساء النظام

الديمقراطي ، هاج المواطنون ضد أولئك النواب فعادوا للوقوف مع حزبهم وفاز إسماعيل الأزهري بالثقة من جديد ذلك الحدث الذي يستحيل نسيانه لم يقف حائلاً دون تعيين أحد أولئك النواب فيما بعد في منصب وزاري ممثلا للحزب ولو رفض الرئيس الازهري اختياره لما استنكر احد ذلك لكن العجب فعلا كان في سماحة أزهري .

«تابع بقية اللقاء مع المهندس أحمد الطيب في الفصل السادس» .

مع السيد محمد يوسف مضوي :

مولانا السيد محمد يوسف مضوي أحد رجال القانون والقضاء البارزين في بلادنا ، تتلمذ في مرحلة الثانوي العالي كلية غردون على الأستاذ إسماعيل الأزهري الذي كان متخصصاً في مادة الرياضيات ، حكى لي قصة طريفة بأن زميلهم الطاهر السراج كان لا يميل كثيراً لمادة الرياضيات وقال لديه خطة لتفادي الدرس فيها فلما دخل الأستاذ أزهري الفصل وقبل أن يبدأ في إلقاء الدرس وقف الطاهر وقال له : يا أستاذ بحق الوطنية التي بيني وبينك تحدثنا قليلا عن المؤتمر والسياسة ، فاستجاب السيد ازهري وتحدث بعض الوقت في ذلك ، وفي المرة الثانية أراد الطاهر أن يكرر المشهد ولكن الأستاذ قال له ياسراج إذا عاوز تعرف عن المؤتمر تعال في النادي مش في الفصل.

هذا وإبان رئاسة السيد إسماعيل الأزهري لمجلس السيادة كان مولانا السيد محمد يوسف مضوي رئيسا للجنة الإنتخابات ، وبحكم صلته برأس الدولة سألته عن كيف كان يتصرف الرئيس الازهري فقال كان رجل دولة يتصرف بصفة قومية

ويتمسك بالديمقراطيه ، قال في الإنتخابات التي اجريت بعد طرد نواب الحزب الشيوعي من البرلمان حدث ان تقدم السيد احمد سليمان المحامي للترشيح وبما أنه كان ضمن أولئك النواب السابقين عن الحزب الشيوعي إعترض على قبول ترشيحه عدد من القانونيين البارزين في الأحزاب المختلفة معه في السياسة ، يقول السيد محمد يوسف عقدت جلسة معهم بحضور الرئيس إسماعيل الأزهري وكان بين الحاضرين السيد إبراهيم جبريل الإتحادي القيادي لمناقشة الأمر وأوضحت لهم ان قانون الانتخابات كما يعلم السادة القانونيون لا يحرم السيد أحمد سليمان من الترشيح فقال السيد إبراهيم جبريل ، وهو ليس رجل قانون ، يا اخي قانونكم ده ضرضروه بشوية سياسة فقال السيد ازهري ضاحكا: "الجماعة ديل لو وجدوا مثل هذه الضرضرة في قانونهم سوف يحتّوها".

قال السيد محمد يوسف تفرقنا دون أن أعرف رأي السيد الرئيس بوضوح وظللت مهموما باقي اليوم أسأل نفسي كيف اتصرف لو انه وقف الى جانب أولئك المعارضين – هل اتقدم بالاستقالة وهل اتصل بسادته قبل ان يعلن قراره لافصح له عما يجيش في نفسي ولكنه قد يفسر ذلك بأنني أمارس ضغطاً عليه ، وأخيرا رأيت أن أنتظر بعض الوقت، فوجئت بالرئيس أزهري يتصل بي تلفونيا بمنزلي الساعة السادسة صباحاً ليقول الآتي: « السلام عليكم يا سيد محمد ، الديمقراطية والقانون تأخذ مجراها والسيد أحمد سليمان يعرض على الشعب إن شاء قبله وإن شاء رفضه مع السلامة » وسررت كثيراً لما قاله لأننا بذلك وجدنا سنداً قوياً لنؤدي العمل المكلفين به في حياد تام .

قــال السـيــد مــحـمــد يوسف وأذكــر أنني قلت لـلسـيــد الرئيس أزهري إن لجنة الانتـخـابات تحـتـاج لشـخص مقتـدر لملء وظيفـة سكرتيـر اللجنة ، التي تحتـاج في البداية لخلق الـوظيفة وقد وقع الاختيار بعد التدقيق على السيد اسماعيل بخيت من رجال الحكومة المحلية الأكفاء فما كان من سيادته الا ان طلب في التلفون السيد طنطاوي وكيل ديوان الخدمة بوزارة المالية وقال له ان لجنة الانتخابات قد وقع اختيـارهم علي السيد اسماعيل بخيت لملء وظيفة سكرتير اللجنة واهمية اللجنة لا تحـتـاج الى تبيان ارجـو تكملة الاجراءات لخلق الـوظيفـة ليبـاشر السـيد السكرتيـر عمله باسرع فرصة لقد كان السيد اسماعيل الازهري قائدا وطنيـا عظيما حقا عليه رحمة الله الواسعة.

مع دكتور بشير البكري :

دكتور بشير البكري من أوائل الدبلوماسيين السـودانيين ومن ابرزهم ، وهو من خبرائنا الاقتصاديين ، وذو ثقافة شاملة واسعة فلا عجب ان وجدته مشاركا فاعلا في كثير من المؤتمرات والندوات علي اختلاف مواضيعها وتنوع اهدافها . وفي جلسة سريعة اختلسناها قبل تلبيته الدعوة للمشاركة في محاضرة علمية ، تأكد لي ان الرجل يمكنه ان يملي كتاباً كاملاً بمعلومات دقيقة عن الزعيم الأزهري لمعايشة لصيقة ، ولكنني اكتفي هنا بلقطات سجلتها من خلال تلك الجلسة العابرة علي قصرها .

يقول دكتور بشير إنه إلتحق في صباه بمدارس الأقباط بالسودان التى كانت تتبع المناهج المصرية فذلك يسهل مواصلة الدراسات العليا بالجامعة بمصر ومن

حين لآخر كان يزور اقرانه بمدرسة ام درمان الاميرية الوسطي وهناك شاهد لاول مرة الاستاذ اسماعيل الازهري وهو يدرس مادة الرياضيات Mathematics باللغة الانجليزية باقتدار وانبهر بشخصيته وظل يتابع اخبار الرجل وهو يتصعد في قيادة نادي الخريجين بام درمان ومؤتمر الخريجين ، والمسرح السياسي ، وبعد ذلك التقى به في العمل العام وكلفه بأداء بعض المهام الوطنية . وتأكد له عن قرب الاسلوب السهل الذي يعالج به السيد اسماعيل الازهري الامور التي قد تستعصي على البعض بقدر كبير من روح الدعابة الراقية Sense of humour .

يضيف دكتور بشير أن السيد إسماعيل الأزهري تشبع بروح المعلم وكتابه «الطريق الى البرلمان» يؤكد ذلك فهو قد آمن في نفسه بان الديمقراطية افضل النظم للحكم وانها تتفق مع الإسلام في ركنها الأساسي – الشوري – ولكن الأزهري رأي بإسلوب المعلم كيف يمكن ان يعايش الناس هذا النظام ، كيف يديرون اجتماعاتهم بالنقاش المثمر ، وتقديم الاقتراح والاستدعاء ونقطة النظام وقفل باب النقاش ، والتصويت لمعرفة رأي الاغلبية ... الخ ، يقول دكتور بشير إسلوب المعايشة هذا تؤكد ضرورته اليوم كل المنظمات العالمية المهتمة بشؤون التنمية فيقولون بان الهياكل والخطط والبرامج وحدها لا تكفي إذ لابد من مشاركة الناس ومعايشتهم لها لضمان النجاح .

يقول دكتور بشير تمسك السيد الأزهري طول حياته السياسية بالإتحاد مع مصر وعندما نادي بالإستقلال لم يكن ذلك قراراً فوقياً منه وحده أو من قيادة حزبه ولكنه جاء نتيجة إستفتاء للشعب ، وكما هو معلوم فان من مميزات السيد الأزهري

انه يعرف اعداداً هائلة من المواطنين باسمائهم على اختلاف قبائلهم وحباه الله بذاكرة قوية تختزن مثل هذه المعلومات ، لقد تأكد بنفسه من رغبة المواطنين الذين التقوا به ومن التقارير التي حملها مندوبو الحزب من أقاليم السودان المختلفة ، فكان قرار المناداة بإستقلال السودان تجاوباً مع رغبة المواطنين وهذه لعمري قمة الديمقراطية .

ومن امثلة معالجته المشاكل الصعبة بالاسلوب السهل يذكر دكتور بشير حديثه عن مياه النيل واحتمال المشاكل بشأنها بين مصر والسودان كان الأزهري يرى ببساطة أنه ما دام النيل يجري داخل السودان أولاً ثم يتجه إلى مصر فلا يمكن أن تعترض مصر على حقوق السودان المشروعة في مياه النيل.

وعن روح الدعابة ضرب دكتور بشير مثالاً إنه عندما كان السيد اسماعيل الازهري رئيسا للوزراء في الحكومة الوطنية الأولى تعرف على خبير فرنسي في علوم الجلوجيا فكلف دكتور بشير البكري المتمكن من اللغة الفرنسية وآدابها بمرافقة الخبير لزيارة أجزاء مختلفة من السودان ، خاصة حيث توجد الجبال ، وقال لدكتور بشير « إذا رأي الخبير بشائر خير للمستقبل فهذا يقود بعد ذلك الى اتصالات منتظمة بفرنسا ، أما إذا جاء تقرير دكتور بشير بأن الخبير لم يبشر بشئ نكون قد تأكدنا على الأقل من معرفة دكتور بشير للغة الفرنسية» وضحك دكتور بشير من تلك الدعابة فالرئيس أزهري منذ البداية عندما إختاره لمرافقة الخبير الفرنسي كان واثقاً من إلمامه العميق باللغة الفرنسية ولكنه قصد ألا يقول بأن الجولة إنتهت بخيبة أمل .

ويتذكر دكتور بشير أنه بعد الإتفاق على وثيقة الأحزاب السودانية» عام ١٩٥٣م بشأن مستقبل الحكم في السودان ، إلتقى الأزهري وبعض قادة الحزب الإتحادي بأحد الساسة المصريين كبار السن الذي كان يستمع للسيد يحي الفضلي وهو يفصل الحديث عن الاوضاع السائدة فلاحظ الازهري ان الرجل راح في غفوة فقال يا يحي يا اخي نومت الرجل» فرفع يحي صوته حتى فتح الرجل عينيه ولعله كان يحاول تعديل بعض الآراء ، وبذكائه المعهود ولكي لا يفتح مجالاً لذلك قال الازهري « أنا مربوط بوثيقة الاحزاب السودانية مثلما تخنقني هذه الياقة البيضاء ».

لخص دكتور بشير البكري رأيه بان السيد اسماعيل الازهري كان زعيما وطنيا بحق وتمتع بميزات قل ان تجتمع في القادة .

الفصل الثالث

حدة الذكاء والفراسة

حكاياتهم عن الرئيس:

السيد اسماعيل العتباني من أوائل السودانيين المثقفين الذين اشتغلوا بالصحافة وكانت له صحيفة « الرأي العام» اليومية المستقلة ذائعة الصيت والتي عرفت بالاتزان والموضوعية في الأخبار والتحليلات التي تقدمها لقرائها بفضل رجاحة عقل صاحبها وقوة تاثيره على المدرسة الصحفية التي تكونت من معاونيه وتلاميذه .

حدثني السيد اسماعيل العتباني بانه عندما كان طالبا بمدرسة أم درمان الأميرية الوسطى كان السيد اسماعيل الأزهري مدرسا بتلك المدرسة درسوا عليه مادة الحساب وكان معلما ناجحا قديرا في شرح الدروس للتلاميذ وكان إذا أحس بأن الملل يدب في النفوس - ربما لصعوبة الدرس كان يغير الحديث إلى موضوع آخر لا علاقة له بمادة الحساب ويكون ذلك في الدين أو الفلسفة أو غير ذلك في محاولة لإنعاش الأذهان وطرد السأم عن تلاميذه الذين أحبوه وكانوا يتشوقون إلى دروسه

قال السيد العتباني ان الرئيس اسماعيل الأزهري عرف منذ تلك المرحلة من حياته بحدة الذكاء وحضور البديهه ولا غرو في ذلك . فقد كان أول دفعته في كل المراحل الدراسية وكان متفوقا في مادة الحساب بوجه خاص . وقال إن حادثة لا تزال عالقة بذهنه تدل على ذكاء السيد الأزهري وحكمته قال كان شقيقه علي

الأزهري تلميذاً بالمدرسة عندما كان السيد اسماعيل مدرسا بها ، وكان أخود مشاكساً ويعتبر من التلاميذ المشاغبين ، حدث في إحدى المرات أن إحتد النقاش بينه وبين أحد المدرسين – الأستاذ الفاضل البشري « الذي اصبح طبيباً فيما بعد » وكان رجلا فاضلا في أخلاقه وطيباً في معاملته ، إنتهت الحصة الدراسية في أعقاب المشادة الكلامية بين المدرس والتلميذ وخرج المدرس من الفصل فلحق به التلميذ علي الازهري في البرندة وإمتدت يده بضرب أستاذه والتلاميذ يحاولون جهدهم الحيلولة بينهما ، وتلك فعلة نكراء عقوبتها المؤكدة فصل التلميذ الشرير من المدرسة ، سمع الاستاذ اسماعيل الأزهري بالضجة فهرول مسرعاً ولحق بشقيقه قبل أن يتفرق الجمع من البرندة التي امام الفصل وصار يضربه بالصفعات واللكمات ، ولم يكن أخود سهلاً فحاول أن يقي نفسه من تلك الضربات الموجعة ولعله لشراسته لجأ لاستعمال يديه والركل برجله لإبعاد أخيه الأكبر وأستاذه ، واشترك في فض المعركة عدد من التلاميذ وبعض المدرسين ومن بينهم الأستاذ الفاضل البشري نفسه.

يقول الاستاذ اسماعيل العتباني إن الزي الذي كان يرتديه السيد إسماعيل الأزهري عندئذ هو الفرجية والطربوش – نفس الزي الذي عرف به علماء الدين – فذلك المنظر الطريف وهو يكفكف بديه أثناء المعركة مع أخيه ظل عالقاً في ذهن السيد العتباني ، وقال إن ما حدث كان كافيا لإرضاء الأستاذ الفاضل البشري الذي قدر وقوف الأستاذ إسماعيل الأزهري لجانبه لدرجة أخرجته عن ما عرف من وقاره ورزانته ولذلك لم يتقدم الأستاذ الفاضل بشكوى ضد التلميذ علي الأزهري وهكذا

نجح إسماعيل الأزهري بذكائه وحكمته وسرعة بديهته في إنقاذ أخيه من عقوبة الفصل عن المدرسة وفي نفس الوقت نجح في إرضاء زميله الأستاذ الفاضل البشرى الذي ما كانت لترضيه عقوبة غير فصل ذلك التلميذ الشرير.

حكى لي السيد محمود الفضلي قصة عن السيد إسماعيل الأزهري عندما كان معلماً بكلية غردون الثانوية قال : كان الجو متوترا بين الطلاب على اثر تخفيض مرتبات خريجي الكلية ، قال الطلاب لاستاذهم إسماعيل الأزهري بانه لا مزاج لهم في الدراسة وسألوه عن رأيه في المشكلة القائمة وماذا يفعلون. أوقف الدرس واعطاهم بدلاً عنه واجبا يقومون بأدائه في منازلهم ثم قص عليهم قصة تقول بان أحد الحكام الانجليز في السودان كان قد أمر باعتقال المك زعيم قبيلة الفتيحاب وبالفعل وضع بالحراسة ، فثار اهله واتباعه وكان من رأي الكبار من القبيلة معالجة الامر بالحكمة ، ولكن الشباب في القبيلة كانوا متحمسين للقيام بمظاهرة كبيرة تتجه نحو الحراسة لاطلاق سراح زعيمهم المك ، ولكن الكبار من القبيلة قالوا ان الحكومة لن ترضى بذلك وسوف يقع صدام وربما ينتج عنه عدد من الضحايا ، اما الشباب فلم يقتنعوا بذلك وقالوا « احسن الجايين بعدنا يقولوا إننا متنا في سبيل إطلاق سراح المك بدلا من ان يقولوا إننا تركنا زعيمنا في السجن ولم نفعل شيئا بسبب الجبن » .

بهذا الاسلوب التربوي الوطني اللماح ترك الاستاذ اسماعيل الازهري للطلاب ان يستوعبوا القصة بذكائهم ويتخذوا القرار الذي يرونه مناسبا حيال القضية التي امامهم المتعلقة بالاحتجاج على قرار الحكومة بتخفيض مرتبات خريجي الكلية

ذكرت فيما سبق أن الأستاذ الهادي أبوبكر اسحق تحدث لي عن ذكاء السيد إسماعيل الأزهري وأنه كان حاضر البديهة ويتمتع بفراسة نادرة وقد كان ملهما موهوباً في استقراء المستقبل وقد تحقق الكثير مما تنبأ به ، وفي احتفال بمناسبة الذكرى السنوية لاعياد الاستقلال حكى الاستاذ الهادي من إذاعة ام درمان طرفا من ذكرياته مع الزعيم اسماعيل الأزهري فذكر ان الاستاذ النصري حمزة وهو من أعز أصدقاء وزملاء الأزهري كان يجادله بألا ينشغل كثيرا بما يدور في نادي الخريجين بأم درمان وأن يلتفت إلى مستقبله الوظيفي لتأمين مستقبل أولاده وأن يترك حركات الشباب التي يتزعمها بمؤتمر الخريجين، ويقول له ساخراً « انت فاكر نفسك زعيم جد » وكان رد اسماعيل الأزهري على زميله الأستاذ النصري « إن حركة الشباب هذه سيكون لها شأن عظيم ينتهي بإخراج الإنجليز من السودان وأنا سأكون أول رئيس للحكومة الوطنية » وداعب الأستاذ النصري بقوله « وعندئذ لا تزال أنت موظفاً تناكف للحصول على ترقية أو علاوة » .

قال الأستاذ الهادي أبوبكر « بعد الانتهاء من يوم العمل كنت أسيرُ راجلاً مع السيد إسماعيل الأزهري في طريقنا لمنازلنا فسألني عن رأيي في ما قاله للاستاذ النصري حمزة فقلت له إن جلاء الإنجليز عن السودان ليس بالأمر السهل ، وهنا أشار الأزهري بيده إلى المنازل التي كانت أمامنا في الطريق وأقسم قائلاً « والله أنا أرى حدوث ذلك كما أرى هذه المنازل التي أمامنا » ولما تحقق الأمر ونال السودان الاستقلال قال الأستاذ النصري حمزة عن زميله اسماعيل الازهري « والله هذا الرجل إما أنه رجل صالح أو يخالطه شيطان لأن كثيراً مما يتنبأ به يحدث بالفعل».

وفي لقائي مع السيد محمود الفضلي المعلم والسياسي المرموق حكى القصة التالية التي تؤكد ما ذكره الأستاذ الهادي أبوبكر بأن السيد اسماعيل الازهري كان ملهما موهوبا في استقراء المستقبل ، قال السيد محمود « بعد انتخاب اسماعيل الازهري رئيسا للوزراء في أول حكومة وطنية ، كنا في منزل الرئيس عندما دخل علينا الأستاذ عبيد عبد النور –المربي الكبير المعروف – وخاطب الرئيس أزهري قائلا « قوم نمشي السوق نشتري الرحط – وهو لباس مصنوع من شرائط جلدية تلبسه كثير من فتيات البادية حول الخصر ، وكان في الماضي يربط للعروسة حول خصرها وهي تؤدي الرقص . ضحك الرئيس أزهري ولكن الأستاذ عبيد كان مصراً على طلبه الذي بادرنا به، فقال له الرئيس أرجو ان تحكي القصة لهؤلاء الزملاء ، قال الأستاذ عبيد « في الثلاثينات قال اسماعيل الأزهري في نقاش مع عدد من الزملاء إنه سيكون أول حاكم سوداني للسودان ، وساعتها قال الأستاذ عبد الفتاح المغربي متهكما اذا حدث ذلك فسوف ألبس الرحط » وبما أن أزهري صار حقيقة أول رئيس حكومة سودانية فلابد ان نرسل الرحط للاستاذ عبد الفتاح المغربي » وضج الحاضرون بالضحك .

ويقول الأستاذ محمود الفضلي إنه بعد ما تم الاتفاق على قيام مجلس سياده من خمسة اعضاء ليحل محل الحاكم العام البريطاني كان السيد عبد الفتاح المغربي ضمن اعضاء المجلس وكانت الرئاسة دورية ووقع عليه الاختيار ليكون أول رئيس لمجلس السيادة ، والطريف أن السيد عبد الفتاح طلب من الصحفي الكبير يحيى عبد القادر ان ينشر في صحيفته بان السيد عبد الفتاح المغربي يصبح بذلك أول حاكم

عام سوداني ، وذلك ليفوت على السيد اساعيل الازهري فرصة الادعاء بأنه أول رئيس سوداني.

مع السيد أحمد متولي العتباني :

اذكر قصة تدل على ذكاء السيد اسماعيل الأزهري وقوة ذاكرته دار نقاش بينه والسيد احمد متولي العتباني الذي كان قامة في القانون في بلادنا وتبوأ مناصب قضائية رفيعة وكان النائب العام في بداية سودنة الوظائف في عهد الحكومة الوطنية الأولى ، وكان النقاش يدور حول تفسير أحد القوانين أو نص وارد في الدستور المؤقت وانتهي الأمر باقتناع السيد أحمد متولي العتباني بوجهة نظر الرئيس وقد أدهشني ذلك الموقف لأن الرئيس لم يكن من رجال القانون وعلى العكس كان السيد العتباني رجل قانون ضليع.

وبعد ذلك بفترة ليست قصيرة قادني الحديث مع مولانا عبد العزيز شدو ان قصصت عليه تلك الواقعة فقال لي ليس ذلك بمستغرب لأن أمثال الأزهري يعرفون بانهم آباء القانون Fathers of Law لأنهم وضعوا القانون Makers of the Law وشخص في ذكاء السيد إسماعيل الأزهري يستطيع أن يتذكر تفاصيل النقاش عندما كانوا يحاولون وضع القانون وماهي نقاط الخلاف آنذاك وكيف توصلوا في النهاية للصيغة التي ارتضوها وظهر بها النص القانوني الذي يطبقه رجال القضاء.

الفراسة مع الرائد مأمون عوض أبو زيد :

قبل إنقلاب مايو ١٩٦٩ ببضعة أيام كنا في صحبة الرئيس في زيارة للكونغو كنشاسا حيث كانوا يحتفلون بمرور عام على إنتهاء مشكلة المرتزقة البيض الذين

أغضوا مضجع الوطنين والحكومة هناك حيناً من الدهر وقد كان حل المشكلة سلمياً على يد الرئيس إسماعيل الأزهري عن طريق الصليب الاحمر الدولي الذي أشرف على ترحيل المرتزقة لبلادهم بعد أن كتبوا تعهداً بعدم العودة لأعمالهم العدوانية ، أقيم الإحتفال في الكونغو في مدينة صغيرة وليس العاصمة وكانت الإمكانيات ضعيفة لإستقبال الضيوف مما جعل الرحلة شاقة كأنما أراد الله تهيئة النفوس للمشقة التي نتجت بعد أيام قليلة بسبب انقلاب مايو .

حدثني السيد أحمد حسين الرفاعي السكرتير الأول للرئيس أزهري بأنه دخل على سيادته صباح يوم ونحن بالكونغو وبعد تبادل التحية قال له الرئيس « ولد عوض أبوزيد خاتي شنو في رأسه – أي ماذا يدور بذهنه؟ » والإشارة هنا للرائد مأمون عوض أبوزيد الذي كان ياور الرئيس في تلك الرحلة . ووالده من رجال الحزب الإتحادي الديمقراطي البارزين ولذلك أشفق الرفاعي أن يكون الرائد مأمون قد وقع في خطأ فاستفسر الرئيس عن الامر . فقال له الرئيس « هؤلاء الشبان من الجيش او البوليس عندما يكون الواحد منهم بصحبة الرئيس – وهي فرصة نادرة – يحاول ان يظهر دائما بالقرب منه ويبالغ في خدمته حتى يترك انطباعا طيبا في ذهن رئيس البلاد ، ولكنني لاحظت ان هذا الشاب يتحاشى مقابلتي ، وعندما يقابلني يتحاشى ان تقابل عيناه عيني ! فماذا يضمر في نفسه؟ » ولم تكن الحاسة الأمنية عند الرفاعي في مستوى هذه الفراسة التي تصل الى حد اكتشاف ما يعتمل داخل النفوس ، علق الرفاعي ببساطة بان الشاب مأمون خجول بطبعه وتلك أول مرة يتشرف فيها بمصاحبة رأس الدولة ، وعندما وصلنا مطار الخرطوم كان

عوض أبوزيد ضمن المستقبلين فاكتفي الرفاعي بان همس في أذنه « الرئيس ما مبسوط من ولدك» .

وبعد يومين فقط نجح الانقلاب العسكري في ٢٥ مايو ١٩٦٩ وكان من بين قادته البارزين الرائد مأمون عوض أبوزيد !.

الفصل الرابع

رجل دولة (Statseman)

مع الشيخ بابكر بدري :

ذكرت فيما تقدم أن السيد يوسف بدري وصف الرئيس إسماعيل الأزهري بأنه «رجل دولة» وفي ذلك حكى لي بأن والده الشيخ بابكر بدري ذهب لحضور جلسة البرلمان التاريخية التي كان مقررا فيها إنتخاب السيد إسماعيل الأزهري رئيساً للوزراء بعد فوز الحزب الوطني الإتحادي بالأغلبية المطلقة في الإنتخابات، وبالطبع كان الأزهري في قمة بهجته بتلك اللحظات التي جاءت تتويجاً لنضاله السياسي، لمح سيادته الشيخ بابكر بدري يتوكأ في طريقه لداخل مبنى البرلمان فإتجه نحوه وأخذ بيده حتى أوصله إلى مقعده داخل القاعة، إلتقط مندوب صحيفة التايمز اللندنية الصورة وظهرت على الصفحة الأولى في اليوم التالي وعليها تعليق خلاصته يتعجب كيف يوجه رئيس الوزراء في تلك اللحظات التاريخية إهتمامه برجل التعليم !! أطلع السيد يوسف والده على الصورة والتعليق فقال له الشيخ « أكتب لهم لا مجال للعجب فهذا إسماعيل الأزهري ».

وذكر السيد يوسف بدري أنه في مناسبة أخرى ضمن الإحتفالات بالحكم الذاتي كان هناك تجمع جماهيري ضخم في الميدان الواقع شمال وزارة المالية، لمح الرئيس أزهري الشيخ بابكر بدري بين جموع المواطنين، وبعد الإنتهاء من خطابه تقدم إليه وشكره لتكبده مشقة المشاركة في الإحتفال وهو في سن متقدمة، ووجه ضابط شرطة المرور باحضار عربة الشيخ بابكر ووقف معه حتى إستقلها وقال له

إن أردت مستقبلاً حضور مثل هذه الإحتفالات أرجو أن تتصل بي لأتأكد من ترحيلك وجلوسك في المكان اللائق.

ولا يفوتني تذكير القارئ بأن الشيخ بابكر بدري وأسرته بوجه عام يصنفون سياسياً بالإنتماء للحزب المنافس لحزب السيد إسماعيل الأزهري.

يمد يده للذين حاربوه :

في صحيفة «اخبار اليوم الاسبوعي» السودانية العدد رقم (٦٨٧) جاء في صفحة «كشكول السبت» مايلي : « أجرت صحيفة (اخبار اليوم المصرية) حواراً صريحاً مع الزعيم إسماعيل الأزهري أعادت نشر بعضه صحيفة «الايام » السودانية في عددها الصادر بتاريخ ١٠/١٠/ ١٩٥٤، تحدث سيادته عن كثير من القضايا بعفويته المعروفة وصراحته المعهودة وإبتسامته التي لا تفارق شفتيه فماذا قال سيادته : « قال إنني أمد يدي لكل سوداني مهما كانت وجهة نظره ، سأمدها إلى المعارضين قبل المناصرين فإن السودان بلد الجميع ، حتى الذين حاربوني وحاربوا حزبي سأفتح بابي لهم ليعلموا أنه لا أغراض لنا ولا منافع اللهم إلا وحدة السودان ضد المستعمر هذا نداء مني اليوم فليسمعوه .

وأضاف الزعيم الأزهري أريد أن أحرر الشعب من الخوف ، إن شعبنا قد سلط عليه المستعمر الرعب والخوف منذ أمد طويل حتى إن الناس يعتبرون المستعمر مقدساً لا يمس بلفظ أو إشارة ، سوف أخلق في الشعب روحاً جديدة وسأقلب أفكاره التي بناها فيه المستعمر رأساً على عقب وأتمنى أن أمسك بكل فرد من الشعب وأهزه وأصرخ فيه، أنت حر، أنت ملك نفسك فقط .

وحول المسكن الحكومي قالوا أعدوا لي بصفتي رئيسا للوزراء بيتا كبيرا من بيوت الحكومة ، ولكني لن أستخدم هذا البيت إلا إذا كانت هناك حفلة سمية ، أما أنا وعائلتي فسوف نبقى في بيتنا هنا في أم درمان وهو البيت الذي عشت فيه وأنا مدرس والذي عرفني فيه الشعب رئيسا للحزب الوطني الاتحادي وانتخبني فيه رئيسا لأول حكومة سودانية هو بيت لا أشعر بالراحة إلا فيه ».

الرئيس المباشر في العمل :

عندما تم انتدابي من بنك السودان أواخر ديسمبر ١٩٦٧ للعمل بالقصر الجمهوري مديراً لمكتب السيد رئيس مجلس السيادة كان شعوري مزيجاً من الفرح والخوف ، كنت سعيداً لأن الاختيار يعني الثقة في شخصي وفي كفاءتي في أداء المهمة التي توكل اليّ ، وكنت سعيداً لأنني سأكون بجانب زعيم البلاد الذي قاد السفينة بحنكة حتى تحقق للسودان بقيادته الواعية استقلالا نظيفا خاليا من أية شائبه ، ورغم حبي العميق للسيد اسماعيل الأزهري كواحد من أبناء الشعب السوداني المؤمن بزعامته وصدقه في حمل الامانة إلا أنني تهيبت العمل معه كرئيس مباشر في تنفيذ الواجبات اليومية خاصة وفارق السن بيننا كبير إذ كنت عندئذ في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر وكان سيادته قد شارف على السبعين ولم يسبق لي التعامل معه عن قرب ، ومن جانب آخر فقد كنت مدركا بأن أقل خطأ يكون وقعه مجسماً ومضاعفاً لأن المكاتبات الصادرة من مكتب رئيس الدولة داخلياً تكون غالبا مع السادة رئيس وأعضاء مجلس الوزراء وخارجياً مع أصحاب الفخامة ملوك ورؤساء الدول والمنظمات الدولية .

السادة اعضاء مجلس السيادة مع الموظفين بالقصر الجمهوري الرئيس ازهري وعن يمينه خضر حمد ثم جيرفس ياك وعن يساره داؤود الخليفة ثم د. الفاضل البشري يقف خلفهم : ١- عبد الحمن نديم رئيس الديوان ، ٢- عبد الرحمن احمد المهدي مدير مكتب الرئيس ، ٣- التجاني احمد حسن ، ٤- احمد سماعيل أبو من السكرتارية



ولاشك عندي ان السيد اسماعيل الأهري بفطنته وذكائه وتجاربه كان يدرك مدى الاضطراب في مشاعر الموظف الذي سيكون بجواره وهو يخوض مثل هذه التجربة لأول مرة في حياته ، وبروح المعلم التي كانت في رأيي مفتاح شخصيته وباسلوبه التربوي الأبوي ذكر لي في أول لقاء مع سيادته بالقصر الجمهوري بعد الترحاب بي بأنه سمع عن كفاءتي وإخلاصي في العمل وأنه لا ينتظر مني أكثر مما هو في استطاعتي ، وأنه بخلاف المواضيع المحددة التي يكلفني بها فإنه يفوضني في كل أمر حسب ما أرى فيه المصلحة العامة ، وأن أرد على الرسائل نيابة عن سيادته وأن أبادر بالكتابة حسب مقتضيات المواقف والمواضيع للوزراء ورؤساء مجالس الادارات ومديري المصالح والمرافق والمواطنين... الخ ، وفوضني أن أختار الاسلوب المناسب بأن أبدأ مثلا بالقول « وجهني السيد الرئيس، أو أمر السيد الرئيس أو يرى أو يرجو ....» وذكر لي بان البشر يخطئون في حياتهم والمهم ألا يتعمد الانسان الخطأ ولذلك إذا اتضح لي أنني ارتكبت خطأ أو وقع فيه غيري وأن الأمر يحتاج الى تصحيح فعليّ أن أسعى لذلك ، وإن رأيت أن الموضوع ليس من الأهمية في شيء يمكن الإكتفاء بالعظة للمستقبل وأنه لا داعي لتنبيه الرئيس لما حدث من خطأ إلا إذا رأيت أن الأمر يستحق إحاطة سيادته به ، وإذا كان الخطأ في رأيي يستحق التصحيح ولكن ليس في مقدوري ذلك فلابد من إخطار سيادته على الفور ، قال بلطف « ذلك لأنني أكثر تجربة وربما أجد الحل بسرعة وبسهولة ، أما إذا عجزت أنا نفسي عن الوصول للحل فلا تنزعج لأننا بشر وغاية الأمر أننا لم نتعمد الخطأ ، وأردف قائلا بان « سيادته يتحمل تبعات كل الأخطاء وأنني لست مسؤولا

عن أي خطأ مهما كانت درجته ما دمت غير متعمد وما دمت قد حاولت جهد استطاعتي عدم الوقوع فيه » .

وكانت كلمات السيد الرئيس وتوجيهاته لي في ذلك اللقاء الأول حافزاً قوياً لي مضاعفة الجهد والمبالغة في الحذر حتى أكون عند حسن ظن سيادته ، وأذكر انني قلت له رغم انتمائي للحزب الوطني الاتحادي الذي يتزعمه فإنني تمسكت طيلة حياتي العملية بالحياد في تصرفاتي إزاء الناس واستقر في نفسي ان ذلك يعتبر الركيزة الاساسية لضمان الخدمة العامة القوية التي تسعى للعدل بين الناس ، فقال لي سيادته انه لا يطلب مني العدول عن ذلك المبدأ الذي يحرص هو نفسه عليه لأنه يتصرف كراس للدولة وليس رئيساً للحزب ، واطمانت نفسي لحديث سيادته.

وكما يقول المثل « الحذر لا يمنع القدر» فقد حدث في إحدى المرات أن طلب مني شاب سوداني أن أكون واسطة بينه وسلطات الري المصري بالسودان التي قررت نقله فورا من الخرطوم الى جنوب السودان لعلهم يؤجلون النقل لمدة بسطية تمكنه من تجهيز نفسه للسفر بعيدا عن أهله ، فرأيت أن طلبه معقول إذ أنه لم يرفض النقل من ناحية المبدأ وبالفعل تحدثت مع المسؤول المصري في التلفون الذي وعد بالاستجابة ولعله كان يظن أنني مكلف من الرئيس بذلك الطلب لمجرد ان الاتصال معه كان من مكتب الرئيس رغم أنني لم أذكر إسم الرئيس في المحادثة التلفونية ، وحملني تحياته للرئيس.

وعندما أخبرت السيد الرئيس بالقصة لاحظت على وجهه عدم الرضا بما حدث ولعله لم يكن يريدني أن أتدخل في مثل هذه المواضيع خاصة مع جهة ليست

سودانية ، ولكنه لم يعاتبني صراحة وكان معنا ساعتها بمكتب سيادته إثنان من الزملاء بالسكرتارية، طلب الرئيس أن يتحدث في التلفون مع ذلك المسؤول بالري المصري وصار يتجاذب معه حديثاً ودياً ونسمع ضحكات الرجل من الجانب الآخر ثم حشر الرئيس موضوع الشاب في جملة اعتراضية سريعة اذ قال له « قبل قليل تم الحديث معك من مكتبي بخصوص أحد الشبان » فقال المسؤول المصري « أنتم تأمرون» فقال له الرئيس « أرجو أن تنسى هذا الموضوع ولا تتدخل فيه ولنترك الشاب يعالجه بنفسه مع القسم المختص بشؤون العاملين فهم أدرى بالظروف حوله وبما يجب عمله » واضاف مستأنفا الحديث الودي « ضروري تظهر ياسيد .....ومعك الأولاد فقد طالت غيبتكم » وهكذا كان علاجه للموضوع.

ولكن المربي الكبير القدير لم يفت عليه أنني كنت مكسور الخاطر فعمد الى رفع معنوياتي حتى لا يترك في نفسي أثراً سلبياً لما حدث فقال لي « ياسيد عبد الرحمن كنت فوضتك في تصريف العمل اليومي وكنا وحدنا آنذاك شاهدين عليه، بانني أفوضك لتفعل ما تراه مناسبا وأنا مسؤول عن أي خطأ غير مقصود. وبالطبع كان كماته مفعول السحر فقد سرت البهجة في عروقي وزادتني ثقة بالنفس.

مع الشاب الشيوعي :

طلب شاب من الحزب الشيوعي السوداني مقابلة الرئيس اسماعيل الأزهري وحاول بعض السكرتاريين الحيلولة دون مقابلته للرئيس ، ولكن سيادته وافق على لقائه ، في تلك الايام كان الحزب الشيوعي حانقاً على الحزب الاتحادي وزعيمه الأزهري لوقوفهم داخل البرلمان مع الدعوة لطرد نواب الحزب الشيوعي

وكما هو معلوم قرر البرلمان طردهم، وكان الشاب المشار إليه ضمن مرشحي الحزب الشيوعي في إحدى الدوائر الجغرافية ولكنه لم ينجح في كسب أصوات الناخبين بالقدر الذي يؤهله لدخول البرلمان عضواً منتخباً ، وكان أثناء الحملة الانتخابية ممن يهاجمون بقسوة الحزب الاتحادي والرئيس اسماعيل الأزهري ولذلك كان رأي السكرتارية عدم السماح له بالمقابلة ولكن الرئيس قابله وقبل إدخاله لمكتب الرئيس قالوا لسيادته فلان الشيوعي وصل يقصدون تذكيره بأن الزائر ليس من الاصدقاء وحتى تلك اللحظة أنا لم أكن على علم بما جرى لأن تحديد مواعيد مقابلة الرئيس لم يكن من أختصاصي.

دخل عليّ واحد من الزملاء في السكرتارية وقال لي هؤلاء الشيوعيون يستغلون طيبة الرئيس وحمله لقضاء مآربهم ، ومعه الآن فلان الشيوعي فالمرجو منك أن تنبهه بالتلفون الداخلي ليأخذ حذره فتقول له فقط « الشخص الذي أمامك هو فلان الشيوعي » ، والحقيقة لم يكن بيني وبين الشيوعيين عداء وقد زاملت في الدراسة عدداً ليس بالقليل وبعضهم من أصدقائي المقربين : وقبل أن أفكر في الأمر كان السكرتير قد أدار قرص التلفون الداخلي وناولني السيد الرئيس فرددت كالببغاء ما اقترحه عليّ ذلك السكرتير « ياسيدي الرئيس الشخص الذي أمامك هو فلان الشيوعي » ورد الرئيس بكلمة واحدة «كويس» يعني جميل وطالت الجلسة وكنا نسمع من مكتبي الملاصق لمكتب الرئيس الضحكات المتبادلة بين الرئيس والشاب الشيوعي ، وعلمت أنه استجاب لما طلبه الشاب.

بعد ذلك حانت لي الفرصة ودخلت مكتب السيد الرئيس وقلت له هل تسمح

بكلمة قال تفضل قلت له في الشارع عداء مع الحزب الشيوعي وهنا صودة وضحكات ماهو التفسير؟ فضحك وقال لي « زملاءك ناس فلان عادوك » اي هل انتقلت لك العدوى من زملائك » والسكرتير الذي ذكره لي هو بالفعل الذي قادني لذلك الموقف » . ثم اضاف « إنني يا سيد عبد الرحمن أجلس على هذا الكرسي كرئيس لكل السودان وليس كرئيس للحزب الاتحادي ، وأنا أعلم أنه في الظروف العادية لو وجدني هذا الشاب في نار لزادها حطبا . فاذا كانت الظروف قد فرضت عليه أن أكون أنا الملجأ الوحيد له واختار أن يلجأ اليّ فوالله أقف معه ولا أخيب أمله» وشعرت بأنني ضئيل أمام رجل عظيم . فقلت له « والله هو فلان بعينه الذي ذكرته » ، وسررت بأن الرئيس يصنفني تصنيفا مختلفا من زملائي عندما استفسرني إن كانت العدوى قد انتقلت منهم الى شخصي ، فلم أسمح بعدها بأن يفرض عليّ أحدهم موقفا قبل التفكير والتمحيص.

مع المواطن الأنصاري :

ومن الأحداث الطريفة ، دخل علي بالمكتب أحد المواطنين وطلب مقابلة الرئيس، وبالطبع قبل أن يصل إلى مكتبي بالطابق فوق الأرضي لابد قد أقنع الحرس وقسم البروتوكول بالدخول وجميعهم بالطابق الأرضي . فقلت له « ما هو موضوع المقابلة؟» فقال لي« أريد أن أصافح يد الرئيس » فقلت له « وماهي المناسبة» فقال لي « عاجبني ... أي معجب به» فقلت له « الملايين من المواطنين معجبون بالرئيس فهل نفتح الباب لصفوفهم لمصافحته ؟» قال الرجل « لابد أنك تستغرب حديثي ، لاني انصاري ، ويقصد مجموعة منافسة سياسياً للرئيس ،

وكان مظهره يدل على أنه من أنصار الإمام المهدي فقد عرفوا بلبس الجلباب القصير والعمامة المتدلي جزء منها على الكتف والطاقية البارزة فوق العمامة ، واستمر الرجل يتحدث بأنه يسكن وحيداً في العراء غرب أم درمان فالمدينة لم تكن قد إتسعت كما هي عليه اليوم .

وذكر بأن الرئيس قبل بضعة أيام كان في طريقه في تلك البقعة لإفتتاح مرفق من المرافق أو وضع حجر الأساس له، ولما اقترب موكب الرئيس من منزل الرجل إنتصب واقفاً بعد أن كان مستلقياً على عنقريب « سرير بلدي هيكله من الخشب ومنسوج بالحبال» ورفع يديه محيياً ، قال الرجل لم يكتفي الرئيس برد التحية من خلف زجاج العربة الذي كان مقفولاً ليقيه الأتربة التي أثارتها العربات بل فتح زجاج الباب الخلفي وأخرج رأسه خارج العربة ورفع يديه رداً على تحية المواطن الذي ظن بادئ الأمر لفرط بساطته أن الرئيس يحيى شخصاً غيره فتلفت يميناً ويساراً ولكن لم يكن في ذلك العراء إنسان غيره ، فامتلأت نفسه سروراً عظيماً لأن رئيس البلاد كرمه وأشعره بأهمية بالغة.

قال الرجل حدثت له مفاجأة أخرى أذهلته إذ وصلته في اليوم التالي برقية بإسمه من السيد اسماعيل الأزهري يشكره فيها على تحيته له في اليوم السابق ، ومن الواضح أن الرئيس سأل عن المواطن الذي سكن وحيداً في ذلك العراء وعرف إسمه ، قال لي المواطن وهو يحمل في يده البرقية التي وصلته ما معناه أليس هذا ما يثير الإعجاب بالزعيم الإنسان ؟ وفي الحقيقة ذلك إسلوب فريد لقائد عظيم

يحمل بين جنبيه قلبا كبيرا يسع المواطنين على إختلاف مشاربهم .

مع موظف الاعلام الاسلامي :

السيد اسماعيل الازهري كان يؤمن بأن مجلس السيادة يجب الايكتفي بدور تشريفي بل يساهم بدور فعال في تسيير دفة الحكم في البلاد ورأى أن ذلك يحتاج إلى تقوية الجانب الإعلامي في القصر الجمهوري . وحدث في زيارة له لجنوب البلاد أن أعجب بشاب من وزارة الإعلام يعمل هناك وسأل إن كان بالإمكان انتدابه للعمل بالقصر الجمهوري . لم أكن من بين مرافقي الرئيس في تلك الرحلة ولكن علمت أن بعض الزملاء ذكروا لسيادته أن ذلك الشاب ينتمي سياسياً للإتجاه الإسلامي ، وتعجب الرئيس من السبب الذي أريد به إبعاد ذلك الشاب من العمل بالقصر الجمهوري فقال مستغربا « أليس هو سوداني ؟ أنا والله ليس عندي ما أخشى عليه وأسعى لإخفائه» ، وبالفعل تم إنتداب ذلك الشاب للعمل بالقصر الجمهوري وللحقيقة أذكر أنه كان نشيطاً يعرف مسؤولياته وكان يجيد الكتابة باللغة العربية ويلم بمفردات ومترادفات كثيرة وظل يؤدي عمله بكفاءة إلى أن افترقنا بعد نجاح انقلاب مايو ١٩٦٩م.

مع سعيد عبد الله محمد :

السيد سعيد عبد الله محمد من مؤيدي حزب الامة وينتمي لأسرة المهدي بالمصاهرة ومع ذلك كانت صلته طيبة مع الرئيس اسماعيل الأزهري وكان اخود الاكبر صديقاً للسيد محمد أحمد المرضي القيادي المؤثر في الحزب الوطني الاتحادي ذكر لي سعيد أنه في إحدى المناسبات إلتقى بالسيد الرئيس اسماعيل الأزهري

الذي قال له مداعبا « ليه يا سعيد ما جيت تبارك لي إنتخابي رئيساً لمجلس السيادة » فقال له سعيد « وأين أنا يا سيد الرئيس من ملايين المهنئين» فقال له الرئيس « إنت شئ والباقين شئ تاني » وأخرج قصاصة ورق من جيبه وكتب عليها رقم تلفون وقال له « يا سعيد هذا تلفون مباشر وأنت أول زول أطلعه عليه » وشعر بان سعيد ربما لا يصدق ذلك فأضاف « لسبب بسط وهو أنه خصص لي اليوم فاذا واجهتك أية مشكلة في المليون ميل مربع ما عليك إلا أن تتصل بهذا الرقم» وضع سعيد الورقة في جيبه مبتهجاً بهذه اللمسة الأبوية .

قال سعيد بعد ذلك بأيام قلائل ، بما أنه من قدامى القانونيين بديوان النائب العام تم ترشيحه ليكون أحد أعضاء وفد السودان لدورة الأمم المتحدة بنيويورك ولكنه علم من أحد إصدقائه بوزارة الخارجية أن السيد الصادق المهدي رئيس الوزراء رأي أن يمثل الديوان النائب العام بنفسه السيد جلال علي لطفي ، وكان تنبيه ذلك الصديق بالخارجية لسعيد لكي يتصل بالسيد الصادق ليتراجع عن إقتراحه ولكن سعيد رأى أن ذلك الطريق لن يفيده وتذكر رقم التلفون الذي أعطاه له الرئيس فلم يتردد وجرت بينهما المحادثة القصيرة التالية :

السلام عليكم ياسيدي الرئيس فجاء الرد دون تلعثم واستفسار أهلاً ياسعيد هل صادفتك مشكلة في المليون ميل مربع ؟ حكى له سعيد قصة ترشيحه للوفد لنيويورك والتعديل المقترح فقال له الرئيس « السيد جلال علي لطفي رجل ضليع في القانون ولكنه عين في منصب النائب العام قبل فترة قصيرة وليس من المناسب أن يغيب في هذا الوقت لمدة قد تزيد عن الشهرين كما هو معروف عن دورات الأمم

المتحدة . يا سعيد جهز نفسك للسفر».

وفي صباح اليوم التالي قال سعيد إستدعاه السيد مامون سنادة وزير العدل وأخبره بأن السيد الرئيس أطلعه على ما دار بينهما في المحادثة التلفونية وأكد له بأنه سيكون ضمن الوفد لدورة الأمم المتحدة . وفي مساء ذلك اليوم ذهب سعيد مع أخيه الأكبر الى صديقه السيد محمد احمد المرضي الذي أكد لهما ما سمعه سعيد من السيد مامون سناده . ويبدو أن السيد رئيس الوزراء إقتنع بوجهة نظر السيد رئيس مجلس السيادة وبالفعل سافر سعيد عبد الله ضمن وفد السودان إلى نيويورك . وهذا المثال يوضح كيف تصرف السيد اسماعيل الازهري كرجل دولة وهو ينتصر لسعيد الذي ينتمي سياسيا للحزب المنافس للرئيس.

مع شفيق محمد علي شوقي :

السيد محمد علي شوقي والد الأستاذ شفيق كان من المقربين للسيد عبد الرحمن المهدي . حدثني الاستاذ شفيق أن والده أخذه وهو صغير إلى مجلس السيد عبد الرحمن المهدي الذي ضم السيد محمد صالح الشنقيطي وآخرين . وآل شوقي على وجه العموم من أنصار الإمام المهدي ومن مؤيدي حزب الأمة . والأستاذ شفيق من رجال التعليم البارزين حدثني بأن موقعه الأسري وموقفه الحزبي لم يحرماه من عطف الرئيس اسماعيل الأزهري وتقديره لمجهوداته وأنه في إحدى المناسبات كان الرئيس يثني على مستوى واحد من المعارض الفنية التي اشرف عليها الأستاذ شفيق فقال بروح الدعابة « السيد شفيق رجل قصير ولكن فيه خير كثير» .

ذكر السيد شفيق أن المواطنين من أنصار الحزب الوطني الاتحادي شيدوا

مدرسة في أحد أحياء الخرطوم ووجهوا الدعوة للرئيس اسماعيل الأزهري لافتتاحها ووافق سيادته على طلبهم ، قرأ السيد شفيق الخبر في الصحف ولم يكن على علم بالموضوع رغم أنه كان المسؤول عن التعليم في مديرية الخرطوم لأن القائمين بمشروع المدرسة لم يتخذوا الإجراء الرسمي اللازم ، فاشكتى للسيد يحيى الفضلي الوزير الإتحادي المرموق تجاهل المواطنين للخطوات الرسمية التي كان يجب إتباعها ، فأشار عليه السيد يحيى الفضلي بأن يتصل بالسيد اسماعيل الأزهري ويوضح الحقائق لسيادته ، ففعل ذلك السيد شفيق وطمأنه السيد الرئيس بأنه لا يوافق على تخطي المسؤولين المباشرين في الامور التي تقع في دائرة إختصاصهم ، ووجه بالاتصال بالمشرفين على مشروع المدرسة وإخبارهم بأنه لن يقوم بالإفتتاح إلا بعد التأكد من حصولهم على موافقة المسؤلين عن التعليم في المنطقة ، فعل السيد اسماعيل الأزهري ذلك رغم علمه بالصدمة التي تحدث للقائمين على المشروع من أنصار حزبه فقد كان يتصرف كرجل دولة .

مع السيدين ابراهيم أحمد وعبد الماجد احمد :

إنتدبتُ من بنك السودان في يوليو ١٩٦٢ مديراً لمعهد الدراسات المصرفية وأكتملت التحضيرات لبدء الدراسة مع بداية عام ١٩٦٣ وبالفعل تم الافتتاح رسمياً أواخر يناير من ذلك العام ، قام بالافتتاح السيد عبد الماجد أحمد وزير المالية والاقتصاد آنذاك ، أذكر أننا أعددنا بواسطة كلية الفنون الجميلة بالمعهد الفني لوحة فاخرة من الرخام مكتوب عليها بخط جميل ما معناه « تم الافتتاح في عهد الرئيس إبراهيم عبود بواسطة السيد عبد الماجد أحمد وزير المالية والاقتصاد.

يوم .... الخ » وإسم الرئيس وإسم الوزير بارزان باللوان الذهبي اللامع.

فيما بعد عندما حان ميعاد تخريج دفعتين من الدارسين بالمعهد كان ذلك العهد قد إنتهي بانتصار ثورة أكتوبر ١٩٦٤ وإنتهت بعد ذلك فترة الحكومة المؤقتة ثم جاءت الانتخابات بالرئيس اسماعيل الأزهري رئيساً لمجلس السيادة ، وتكريماً للجهاز المصرفي لبى سيادته دعوة السيد محافظ بنك السودان لتشريف حفل التخريج وتقديم الشهادات للناجحين ، إقترح أحد الزملاء أن تستبدل لوحة الإفتتاح الجميلة بلوحة أخري لا تحمل أسماء العهد البائد الرئيس والوزير.

كان الوقت المتبقي ليوم التخريج ضيقاً جداً ، كلفنا أحد المواطنين بعمل لوحة سريعة لا نذكر فيها « عهد الرئيس عبود» ونكتفي بوزير المالية دون ذكر اسمه وكانت اللوحة دون المستوى في الخط والاخراج ولكننا وضعناها على عجل مكان اللوحة الاصلية الجميلة التي حفظناها في مخزن صغير لا أدري ان كانت لا تزال موجودة.

وفي نهاية الحفل طاف الحاضرون على مباني المعهد وكان الرئيس أزهري يمسك بإحدى يديه السيد ابراهيم أحمد الذي كان عندئذ المدير العام للبنك التجاري السوداني وكما هو معروف من قادة حزب الأمة المنافس لحزب الرئيس الوطني الاتحادي وكان السيد ابراهيم أحمد وزير المالية عندما كون حزب الأمة الحكومة برئاسة السيد عبد الله خليل ، وكان الأزهري يمسك بيده الأخرى السيد عبد الماجد أحمد الذي كما أسلفنا كان وزيرا للمالية في العهد الذي انتهى بانتصار ثورة اكتوبر وجاء سيادته للحفل بوصفه عضواً في مجلس الادارة المحلي لبنك باركليز اكبر

البنوك التجارية العاملة بالسودان ، ووقف السيد اسماعيل الأزهري مع صاحبيه يقرأ لوحة الافتتاح ومن التاريخ الموضح عليها قال للسيد عبد الماجد « ألم تكن أنت يا سيد عبد الماجد الذي قام بالافتتاح ؟» فقال له نعم وعلق الأزهري « والله شئ عظيم» ولاحظنا أن السيد عبد الماجد كان يحدق طويلاً في اللوحة ولعله تذكر أن اسمه كان مكتوباً عليها بخط ذهبي جميل ، وشعرنا بأن ما فعلناه باللوحة الأصلية الجميلة لم يكن ضرورياً فها هو الرئيس اسماعيل الأزهري ،– رجل الدولة – يثبت الفضل لصاحبه رغم انتمائه للعهد البائد.

مدير مكتبة الختمي :

عندما إنتدبت مديراً لمكتب السيد الرئيس كان الخلاف لا يزال قائما بين الحزب الوطني الاتحادي الذي يتزعمه الرئيس اسماعيل الأزهري وحزب الشعب الديمقراطي الذي بارك قيامه مولانا السيد علي الميرغني زعيم ومرشد الطريقة الختمية ، وبالنسبة لشخصي مع حبي للسيد اسماعيل الأزهري وتأييدي للحزب الوطني الاتحادي لم تنقطع صلتي بمولانا السيد علي الميرغني الذي أخذت البيعة منه منذ الصغر وتشرفت بموافقة سيادته منذ عام ١٩٦٣ بقراءة المولد النبوي لمؤلفه السيد محمد عثمان الميرغني الختم مؤسس الطريقة الختمية مساء الأحد ليلة الاثنين» من كل أسبوع بمنزلنا ، وهذا الاجتماع الروحي يعرف بتسميته الحَضّرة» اي انه اجتماع في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذكر مؤسس الطريقة الختمية أنه في رؤية منامية أمره الرسول صلى الله عليه وسلم بتأليف المولد على النحو الذي نفذه ، ووعده بأنه يحضر في قراءته ، ونحن أتباع الطريقة

الختمية نعتقد في صحة ذلك عقيدة جازمة ، وكانت هذه « الحضرة» قائمة في منزلنا في عهد والدنا قبل ولادتي إستمرت بعد وفاته بإشراف واحد من أجدادي ثم توقفت بعد وفاته ، فلم يكن في الأسرة من تسمح ظروفه بمتابعتها وكنا صغاراً في السن والحمد لله منذ أن أذن لي مولانا السيد علي الميرغني بإحيائها لم تتوقف حتى وفاته وواصلنا عهدنا مع خليفته السيد محمد عثمان المرشد الحالي للطريقة الختمية.

يبدو أن شخصاً ما حكى ذلك للرئيس الأزهري ولعله أراد بذلك تنبيه سيادته لكي لا يطمئن كثيراً لوجودي في مركز قريب من سيادته ولم يكن يدري أن الرئيس لا يأخذ الناس بالشبهات بل يؤمن بالمحاسبة على الأداء ، إنتهز السيد الرئيس فرصة وقوفنا كمجموعة أمامه في نهاية يوم العمل فقال لي « يا سيد عبد الرحمن قالوا عندك «حضرة» في منزلكم » فقلت له نعم يا سيد الرئيس ، فتابع حديثه « لكنك لم تدعوني – والله لو كنت دعوتني لكنت أول الحاضرين» قلت له « أنت سيد العارفين – باعتبار أن جده الكبير هو شيخ الطريقة الاسماعيلية – نحن لا نوزع كروت دعوة فباب المنزل يكون مفتوحاً لمن يرغب في الحضور ، وعلى كل حال «الحضرة» عندنا كل أسبوع يعني ٥٢ مرة كل سنة وسيادتك تشرفنا متى تسمح ظروفك».

هذا الحوار أمام الزملاء قصد به السيد الرئيس الانسان اسماعيل الأزهري أن يؤكد رفضه لأسلوب الخبث في التعامل كما يؤكد عدم تفضيله في العمل لأى فرد على أساس بخلاف الكفاءة في الأداء.

ياور الرئيس الأنصاري :

[illegible]

في كل تحركاته الرسمية . جاء في مجلة « الدستور» التي تصدرها شركة الرأى العام للصحافة والنشر العدد (٥٤) بتاريخ ٦ ديسمبر ٢٠٠١ ما يلي:

في حوار مع العقيد(م) التوم عبد الله الياور الخاص للرئيس الأزهري في الفترة ٦٥-١٩٦٧ - وهو خال الإمام الهادي المهدي - ذكر سيادته أن الرئيس أزهري « كان صديقاً للإمام الهادي ولا يتورع في زيارته بمنزله في أي وقت فقط يطلب مني ان أتصل بالإمام وأخطره بأن الأزهري سوف يزوره بعد قليل وكانا يتقابلان ببشر وترحاب في جو خال من الشوائب السياسية ويتسامران ثم يودعه الإمام حتى الباب» . «وكان الرئيس الأزهري يحرص على تقديم ياوره الخاص لمن يلتقي بهم من الرؤساء وغيرهم بأن التوم عبد الله هو خال الإمام الهادي المهدي» . وكما هو معلوم كان السيد الإمام الهادي في ذلك الوقت يقود حزبا كبيرا منافسا لحزب الرئيس أزهري .

قال السيد الياور « عندما نكون في زيارة خارج البلاد يجتمع السودانيون لمقابلته وكان الرئيس يحرص على مقابلتهم فرادي وجماعات من مختلف ألوان الطيف السياسي لا يفرق بين من هو حزب أمة أو اتحادي أو شيوعي بكل رحابة صدر يستمع اليهم ويحل مشاكلهم ويشجعهم ويطلب منهم أن يكونوا قدوة يمثلون السودان خير تمثيل . وقد كنا نسمع من المسؤولين في تلك الدول ما يثلج الخاطر ويبيض الوجه».

صيانة ندي الخريجين :

كانت سمة التسامح بارزة بين السياسيين على إختلاف مشاربهم في أيام

الرئيس أزهري – وكان الرئيس أبرزهم في ذلك – وكان يغتنم المناسبات القومية لإشراك منافسيه في المساهمة المطلوبة ، أذكر هنا ما حدث عند إجراء الصيانة لنادي الخريجين بأم درمان أواخر الستينات ، وكما هو معلوم ظل الاتحاديون يسيطرون على إدارة النادي حتى حدث إنقلاب نوفمبر ١٩٥٨م بقيادة الفريق ابراهيم عبود وأغلق النادي بأمر حكومي مدة ليست قصيرة ، ثم قررت الحكومة فتح النادي بعد تكليف لجنة لإدارته من شخصيات اعتبرت محايدة أو غير صارخة الحزبية ، وبعد قيام ثورة أكتوبر ١٩٦٤م كانت تلك اللجنة عاكفة على إجراء صيانة لأثاثات النادي ومبانيه ، وكانت مجموعة من الاتحاديين تنوي الانقضاض لتغيير اللجنة والسيطرة على مقاعدها ولكن الرئيس أزهري وجه بأن تعطى الفرصة لأولئك الشبان النشطين المسؤولين آنذاك عن إدارة النادي ليكملوا ما بدأوا من الإصلاحات وأذكر منهم السادة بدر الدين سليمان الذي تقلد فيما بعد مناصب وزراية في عهد حكومة مايو وأحمد عبد الله المغربي وتوفيق اسحق وكان يرأسهم الأستاذ حسن نجيله.

كانت النقود عزيزة ولم يكن في استطاعة لجنة النادي تنفيذ برنامج إصلاحي يكلف مالاً كثيراً ، ولذلك وضعت ميزانية تقديرية حجمها بضعة آلاف من الجنيهات ، رأت اللجنة أن تستعين بالرئيس اسماعيل الأزهري صاحب الجولات والزعامة في تاريخ النادي لجمع المال اللازم بالتبرعات ، رحب بهم الرئيس وراجع معهم التقديرات حتى تكون الصيانة كاملة وبمستوى جيد وبذلك إرتفع المبلغ المطلوب إلى أضعاف ما وضعته اللجنة بادئ الأمر ، وأثار فيهم الحماسة بأنه

سوف يتكفل بجمع المال اللازم وأنه سوف يقف معهم بنفسه لضمان التنفيذ ، وكان رأيه ربما لايتهيأ للنادي في المستقبل القريب من يتمتع بنفس الحماسة للقيام بالصيانة اللازمة.

بدأ الرئيس أزهري بالاتصال بقادة حزب الأمة الذين كانوا ينافسونه في الماضي للسيطرة على لجنة نادي الخريجين بأم درمان - شيخ الأندية - وأذكر يقيناً أنه إتصل بالسيد ابراهيم أحمد الذي ترأس لجنة النادي في إحدى الدورات وكما نعلم كان وزيراً للمالية من حزب الأمة في وزارة السيد عبد الله خليل ، وفي التلفون يذكره الأزهري ببعض الأحداث الماضية في معارك النادي ويحدد الأزهري حسب ما يراه مناسباً المبلغ المطلوب من السيد ابراهيم أحمد الذي لا يتردد في الدفع، كما تحدث السيد الأزهري مع السيد محمد أحمد محجوب الذي كان رئيساً للوزراء وكان من مميزاته المتعددة أنه قال شعراً رصيناً ، ويبدأ الرئيس أزهري حديثه في التلفون « كيف الحال يا أبو سامي" ثم يذكره بقصيدة عصماء ألقاها في إحدى المناسبات ربما لم تخلُ من هجاء للأزهري ورفاقه ، وينتهي الأمر بأن يرسل الرئيس سكرتيره الخاص السيد أحمد حسين الرفاعي للمحجوب الذي يدفع عن طيب خاطر المبلغ الذي حدده الرئيس أزهري ، وهكذا واصل الأزهري إتصالاته وهو يتصرف بصفة قومية ليشرك الجميع في الفضل وكان بإمكانه أن يقتصر الأمر على رجال حزبه ممن يتشوقون للعطاء فيما يطلبه رئيسهم.

وشوهد الرئيس أزهري عدة مرات داخل النادي ومعه المقاول المكلف بالصيانة، وبعض أعضاء اللجنة حتى اكتملت المهمة بالصورة التى ضمنت إستمرار النادي بهيئة لائقة لسنوات عديدة.

مع السيد محمد صالح الشنقيطي :

بعد وفاة السيد مبارك زروق السياسي المرموق نائب رئيس الحزب الوطني الإتحادي لبى الرئيس الدعوة لوضع حجز الأساس لمؤسسة ثقافية تخليداً لذكرى الفقيد العزيز مبارك زروق، وكان بين الحاضرين السيد محمد صالح الشنقيطي من أوائل السودانيين الذي تبوأوا مراكز رفيعة في القضاء ، وكان رئيس الجمعية التشريعية قبل الإستقلال ، وكان من المقربين القلائل للسيد عبد الرحمن المهدي ثم السيد الصادق المهدي وبذلك كان في السياسة في الجانب المعارض للسيد اسماعيل الأزهري ، وكان السيد الشنقيطي رجلاً محسناً وقام ببناء مدرسة بحي العرب أم درمان تحمل إسمه.

وقف الرئيس ليضع حجر الأساس وتقدم له مندوب الإذاعة السودانية لتسجيل كلمة بتلك المناسبة ، فنادى الرئيس السيد محمد صالح الشنقيطي وقال في التسجيل « بسم الله الرحمن الرحيم ، معي الآن شيخ البنائين السيد محمد صالح الشنقيطي لنضع معاً حجر الاساس لمؤسسة تحمل إسم فقيد البلاد السيد مبارك زروق ....» لم يكن التلفزيون متاحاً لعامة المواطنين ليشاهدوا ذلك المنظر الودي فقصد الرئيس أزهري أن يُسمع المواطنين من الإذاعة أن السيد محمد صالح الشنقيطي إشترك في وضع حجر الأساس وكان ذلك تصرفاً قومياً ، ولم يكن واجباً على الرئيس أن يفعله لولا تمسكه بهذه الصفة القومية وتكريمه للمرحوم مبارك زروق الذي كان علماً قومياً من أعلام السياسة في السودان.

خطب الرئيس :

السيد إسماعيل الأزهري كثيرا ما كان يرتجل الخطب خاصة في اللقاءات الجماهيرية وهو يجيد التحدث باللغة العربية الفصحى فقد صقلتها كثرة تلاوته للقرآن الكريم ، وعندما كان يطلب مني كتابة مسودة لكلمة قصيرة ويبدأ في ذكر النقاط التي يجب ان تحويها الكلمة كنت أسجل سريعاً ما يقوله فلا أجد صعوبة في إضافة بعض التعبيرات والسطور هنا وهناك لأخراج المسودة المطلوبة .

ويلقي الرئيس كلمات مطولة في مناسبات مختلفة مثل الإحتفال بذكرى الإستقلال والمؤتمرات الدورية للجمعيات العلمية ، وإحتفالات التخريج في الجامعات ، والمؤتمرات التفاكرية في بعض أجهزة الدولة وهكذا ، وكان توجيه الرئيس أزهري الاستنارة بآراء المتخصصين في كل موضوع ، بغض النظر عن إنتماءاتهم الحزبية ، لما يمكن أن تتضمنه الكلمة المناسبة وأذكر من الشخصيات الاستاذ الهادي ابوبكر اسحق والاستاذ محمد توم التيجاني في مجال التعليم والاستاذ جمال محمد أحمد ودكتور بشير البكري في الشؤون الخارجية والشيخ حسن مدثر في الشؤون الدينية والاستاذ بشير محمد سعيد في الشؤون العامة وغيرهم ، أما بالنسبة للمؤتمرات السنوية يتقدم عادة منظموها بكلمة مقترحة للرئيس تكون متناسقة مع الكلمات الأخرى الموضوعة في برنامجهم ، وفي بعض الأحيان ربما تتضمن مشروعاً يسعون لتحقيقه ويريدون أن يعلنه الرئيس في كلمته [illegible] جهة الاختصاص الرسمية ، أذكر [illegible] التعاونية

دفعاً للحركة التعاونية ، وكان الرئيس أزهري مؤيدا للفكرة ولكنه وجه بالكتابة لبنك السودان وكان رأيهم التريث في الأمر ولذلك لم يتعرض للموضوع في كلمته أمام التعاونيين ، مثال آخر في أحد مؤتمرات الغابات كانت المسودة المقدمة منهم في مجملها عبارة عن التهنئة بمؤتمرهم وتمنيات بالتوفيق ، وجه الرئيس بأن نحاول تضمين الكلمة حقائق علمية فلجأنا الى صديق أهدانا مجلة علمية نقلنا منها بعض المعلومات التي أدهشت مدير المصلحة السيد خالد الخير فطلب منا معرفة المصدر فعرضنا عليه المجلة فأخذ عنوانها.

وأذكر أيضاً في مناسبة دينية بالباكستان كان علينا تقديم مسودة رسالة باللغة الإنجليزية يبعث بها الرئيس للرئيس الباكستاني فاستعنت بالأستاذ محمد صالح عمر ، وبعدها أهدانا مجلة باكستانية تصدر بالإنجليزية إن رغبنا في الإشتراك فيها .

تظلمات المواطنين :

لم يكن الرئيس اسماعيل الأزهري يتبرم من الإستماع لشكاوي المواطنين أينما التقوا به سواء في القصر الجمهوري ، أو في منزله أو في ليلة سياسية أو أية مناسبة إجتماعية فكثيرا ما يقابلهم في عقد قران أو احتفال بولادة مولود أو نجاح ولد في نهاية مرحلة دراسية أو في مشاركته العزاء في الوفيات ..... وكان يكتب مذكرة بالشكوي على ورقة يحملها معه يحرص على الإتصال بالوزير المسؤول عن كل موضوع ولا يفرط في مثل تلك الأوراق قبل أن يعرف الحقائق ويصل إلى نتيجة سواء بالرفض أو الإستجابة للمطلوب.

في ذات مرة إلتقى مندوبون من العاملين بمشروع له صلة بالصناعة بالإقليم الأوسط إلتقوا بالرئيس في غير ساعات العمل وقدموا له ظلامتهم التي حولها للوزير المختصِ ، وزير الصناعة السيد كلمنت أمبورو آنذاك ، وطلب منه أن ينظر فيها لرفع الظلم إن وجد وأن يطلعه على الحقائق ، وأنا لم أكن على علم بالموضوع حتى تسلمت رسالة طويلة مرفوعة من السيد وزير الصناعة للسيد الرئيس تحمل رداً يفند كل إدعاءات أولئك المواطنين ، أطلعت السيد الرئيس على محتويات رسالة السيد الوزير فأخبرني بأن أصحاب الشكوى قد يتصلون به في أية لحظة ووجه سكرتيره السيد أحمد حسين الرفاعي بأن يقابلوني عند حضورهم ، فقلت للرئيس إن أولئك الأفراد ربما ينتمون لحزبه سياسياً ، ولكنهم يعرضونه لمواقف محرجة وإنني ربما أكون قاسياً معهم على ضوء المعلومات القاطعة التي جاءت في خطاب الوزير فقال لي « أنت مفوض لتفعل ما تشاء ».

وبعد يومين أو ثلاثة حضر المواطنون آخر يوم العمل وكنا نستعد للإنصراف وهمس الأخ الرفاعي في أذن الرئيس بأنهم وصلوا في مكتب الإستقبال فرد عليه سيادته بأنه سبق أن وجه ليقابلوني.كنت في غاية الغيظ لأن توقيت مجيئهم آخر اليوم كان سخيفاً ، وأني غضبت عليهم سلفا لإفتراءاتهم على المسؤولين ، قلت للسيد الرئيس وهو يهم بالإنصراف بأنني سأكون حاداً مع أولئك القوم حتي لو أدى ذلك لخروجهم من الحزب ، فقال لي وهو يضحك من إنفعالي وهو متحرك نحو الباب« أفعل ما تشاء مع السلامة» وخرج.

إستقبلت المواطنين الثلاثة ببرود ولم أطلب لهم المشروب البارد كعادتنا بل بدأت

في عتابهم بأنهم أدخلوا السيد الرئيس في حرج وأن وزير الصناعة فند جميع إدعاءاتهم وقرآت عليهم الرد علي النقطة الأولى ، ولم ينفعلوا بل رفع أحدهم جلبابه ومن جيب القميص الداخلي « العراقي» أخرج محفظة بالية ومنها قدم لي ورقة ممزقة ولكن كتابتها بالآلة الكاتبة واضحة ومختومة بخاتم الجهة الرسمية التي أصدرتها وكانت المحتويات تطابق ادعاءهم وتكذب ما ورد في خطاب الوزير ، وهذا موقف ألجمني ، فانتقلت للنقطة الثانية وقلت لهم « أنتم قلتم كذا وكذا والوزير يرد بأن الواقع غير ذلك وقرأت عليهم الفقرة من الخطاب » فما كان منهم إلا أن أخرجوا من محفظتهم البالية مستنداً آخر من جهة رسمية يؤكد ما تظلموا منه ويخالف توضيح الوزير ، ولا أخفي أنني إرتبكت وتوالت ضرباتهم في النقطة الثالثة والرابعة بهذه المستندات الدامغة التي ذخرت بها محفظتهم البالية.

وهدأت ثورتي ضدهم بعد أن هدوا كياني بقوة حجتهم وعدم إنفعالهم وأحسست بأنني بحاجة لشربة ماء ، وهنا تذكرت بعد أن مضي ما يقرب من الساعة من بداية اللقاء أنني لم أكرم الضيوف فطلبت مشروباً بارداً لنا جميعاً ، ثم راجعت معهم النقاط الواحدة تلو الأخرى للتأكد من الرد الدامغ علي ما جاء في خطاب الوزير وكتبت نيابة عنهم مسودة خطاب موجه للسيد رئيس مجلس السيادة لتوضيح الحقائق إعتماداً على المستندات الرسمية التي بين أيدينا ، وقرأت عليهم مسودة الخطاب فوافقوا عليها وكلفت أحد الموظفين بطباعتها ليكون الخطاب جاهزاً في اليوم التالي ليوقعه أولئك المواطنون الثلاثة ونرفق معه للسيد الرئيس صوراً من المستندات ووعدتهم بإعطائهم نسخاً من خطابهم للسيد الرئيس

ليحتفظوا بها في محفظتهم العجيبة ! وإعتذرت لهم عن الإسلوب الجاف الذي بدأت به اللقاء وافترقنا بعد الساعة الرابعة عصراً لنلتقي آخر نهار اليوم التالي.

وفي صباح اليوم التالي دخلت علي السيد الرئيس لأطلعه على بعض المكاتبات وبالطبع كان لابد لي من البدء بموضوع جماعة الأمس ، وكان يسجل بعض النقاط في مفكرته فقلت له «جماعة المشروع» فترك الكتابة وإعتدل في جلسته وقال لي ماذا فعل الله بجماعة المشروع » فقلت له أنت تعلم ياسيدي مدي الإنفعال الذي تركتني فيه بالأمس وإعتذرت له عن ذلك وقصصت عليه بالتفصيل كيف بدأ إجتماعنا بشعور لئيم مني وكيف تبدل الحال حتى تبينت قصتهم وإنني أنتظر وصولهم آخر النهار للتوقيع على الخطاب الذي طبعناه من المسودة التي كتبتها بموافقتهم . وارتاح سيادته لما قصصت عليه وقال لي « إنا كنت واثقاً بأنك ستصل لهذه النتيجة» ، قلت له ولكنك ياسيدي الرئيس فوضتني دون أن تعطيني أي تلميح بحقيقة الأمر وكان بالإمكان أن يحدث ما لا تحمد عقباه ، قال لي « لا تعتقد أنني أفوض كل شخص فأنا أنتقي من أفوضهم وأنت ياسيد عبد الرحمن شاب طيب القلب مخلص ولا تتعمد ظلم أحد» ، ثم أردف قائلاً « ولكنك نسيت ركناً هاماً من أركان العدالة وهو الإستماع للطرفين واكتفيت بما قاله الوزير وحكمت قبل أن تستمع للطرف الآخر» وإستمر الرئيس أزهري المعلم والمربي القدير في حديثه لي « أنت إكتفيت بما قاله الوزير لأنك تعتقد بأنه وغيره من الحكام لا حاجة لهم بالكذب والتلفيق وهذا ما يجب أن يكون عليه الحكام ، ولا شك بينهم من يؤدي واجبه مرتاح الضمير ، ولكنني –متحدثا عن نفسه– أعلم بالتجربة أن صداقات تنشأ بين

المسؤولين في المرافق المختلفة خاصة بالأرياف ويظلم أحدهم مواطناً بسيطاً فلا يجد من ينصره ، بل لا أستبعد أن يقتل شخص ونتيجة لتلك الصداقات لا يعرف القاتل ، فإذا ضاق بعض المواطنين ذرعاً بما يجري في منطقتهم أمثال هؤلاء المندوبين عن أهلهم ووصلوا بظلامتهم إلى رأس الدولة ويصرون على التحقيق فيها فإنني أكاد أجزم بصدقهم لأنهم يعلمون بأنني سوف أرجع للمسؤولين لمعرفة الحقائق وإذا اتضح عدم الصدق في الدعاوي فسوف تصبح حياتهم جحيماً ، ولذلك لابد أن نساندهم بكل ما نستطيع حتي نعرف الحقيقة ثم نبذل الجهد لرفع الظلم عنهم».

وبعد هذا الدرس البليغ الذي حاولت أن أضعه نصب عيني في كل موقع قيادي تقلدته فيما بعد ، إتفقت مع السيد الرئيس أن نكتب لوزير الصناعة بالمعلومات التي تجمعت لدينا وطلبت من أولئك المندوبين عن العاملين بذلك المشروع الإتصال بي مرة أخرى بعد إسبوعين لمتابعة التطورات في قضيتهم ، ولكن مع الأسف بدأ عهد مايو ١٩٦٩م قبل إستلام رد الوزير ، وكل الذي تمكنت من فعله إنني قصصت القصة كاملة على السيد موسى المبارك الذي عين أول وزير للصناعة في عهد مايو ولا أدري كيف إنتهي الأمر في تلك القضية .

الفصل الخامس

الخدمة العامة - والعمل العام

من كتاب « الزعيم الأزهري وعصره » :

مع تعاقب الحكومات في بلادنا تعرضت الخدمة المدنية لهزات عنيفة نتيجة تفضيل الحاكمين لأصحاب الولاء للحاكم وليس بالضرورة الكفاءة. فلعله من المناسب التعرف علي رأي القائد الوطني الفذ إسماعيل الأزهري في هذا الأمر الهام الذي يعتبر ركيزة أساسية لتسيير شؤون الدولة بنجاح نقتطف فيما يلي من الصفحتين رقم « ١٨٣ و ١٨٤» من كتاب « الزعيم الأزهري وعصره » لمؤلفه الأستاذ بشير محمد سعيد ما قاله الأزهري في ذكرياته كرئيس لأول حكومة وطنية.

« أوضحنا في بيان حرص الحكومة على قوة جهاز الخدمة العامة وتماسكه وكفاءته ، وأكدنا سياسة الحكومة الرامية لمنح الموظفين أكبر فرصة ممكنه لتصريف مسؤولياتهم . وقلنا إن واجب الوزراء هو أن يرسموا السياسة وأن يقرروها وواجب الموظفين هو أن ينفذوها باخلاص وبكل جهد مستطاع سواء وافقوا علي تلك السياسة أو لم يوافقوا ......

ومنحنا الموظفين الحق في الإعتراض على قرارات الوزراء دون أن يؤثر ذلك على التنفيذ بأن يسجل الموظف رأيه كتابة للوزير موضحاً أسباب إعتراضه ....» وقال وكنا حريصين الحرص كله على إحترام الموظفين وحمايتهم ومساندتهم وتمكينهم من جودة الأداء ، وكنا ندرك أن الحكومة مسؤولة عن موظفيها وأنها ليست خصماً لهم ، كما ندرك أنه لن يقوم في السودان حكم صالح والموظفون مهددون خائفون ...

نعرف أن كثيراً من الموظفين يختلفون معنا في الرأى ولكننا لم نسمح لأنفسنا بأن نتاثر بذلك ».

« كان هدفنا منذ البداية صيانة الخدمة العامة وتقويتها ورفع الظلم عن المواطنين ، نقدر دورهم الملحوظ في الحركة الوطنية وتضحياتهم من أجل السودان سياستنا تجاههم تقوم على العدل لا نتحيز لفريق منهم لأنه يناصرنا ولا نعادي فريقاً لأنه ضدنا ، كانوا سواسية عندنا لا يمتاز أحدهم عن أخيه إلا بمقدار جهده وإخلاصه لعمله وكفاءته وقد حرصنا أن نعلن هذه المبادئ في كل فرصة تهيأت لنا» .

واقوي دليل علي صدق السيد إسماعيل الأزهري في التمسك بالمثل التي أعلنها بشأن النظرة للخدمة العامة أنه عين السيد/ الدرديري محمد أحمد نقد مستشاراً لمجلس الوزراء الأول الذي إنفرد به الحزب الوطني الإتحادي ولم يكن السيد الدرديري من مؤيديه ولكن السيد الأزهري كان يثق في مقدرته الديوانية وإلمامه الوافي بقوانين الخدمة العامة.

في عيد الإستقلال :

وجاء في خطاب السيد إسماعيل الأزهري كرئيس لمجلس السيادة في عيد الإستقلال أول يناير ١٩٦٩م ما يلي :« وزراؤنا الذين يتحملون مسؤولية الحكم بإسم الشعب عليهم أن يستوحوا سياسياتهم من رغبات الشعب وتطلعاته وأن يهتموا بالمسائل الكبيرة ويبتعدوا عن الإمور الصغيرة ، وأن يعملوا على تهيئة الجو الملائم لرجال الخدمة المدنية ليؤدوا واجباتهم في ثقة واطمئنان ، هذه هي

الديمقراطية التي إرتضيناها والتي نتمسك بها ولن نفرط فيها» .

« نحن الذين دافعنا عن الكرامة السودانية بفرضنا سودنة المناصب العليا ، وانتزاعها لإخواننا وأبنائنا السودانيين من بين أنياب المستعمر ليس بمستغرب علينا أن نؤكد ثقتنا اليوم في جهاز الخدمة المدنية في بلادنا ».

مع العاملين بجهاز المخابرات :

هذا وقد سردت في الفصل السابق بتجربتي الشخصية يوم التحقت للعمل بالقصر الجمهوري مديراً لمكتب سيادته ، الحديث القيم الذي طمأنني به للعمل في ثقة تحت سيادته وفوضني لإتخاذ ما أراه مناسباً ، وذكرت أيضا بعض الأمثلة عن تصرفه كرجل دولة مع مواطنين لا ينتمون لحزبه ، وأذكر هنا أن الأفراد الذين كانوا أيام الإستعمار يعملون في جهاز المخابرات فحسب مقتضيات واجباتهم لاشك كانوا يكتبون التقارير السرية عن النشاط السياسي ونتيجة لذلك تعرض كثير من المواطنين الوطنيين للمضايقات وربما المحاكمات ومن أبرز الذين عرفناهم والعاملين في ذلك الجهاز الأمني السيد بابكر الديب .

كانت تقام ندوات في نادي الخريجين بالخرطوم والنادي المصري وبديهي أنها تحت مراقبة أجهزة الأمن ومن الطرائف أن المتحدث المصري ذات ليلة سرد للحاضرين قصة سيدنا يوسف وكيف تآمر إخوته بإلقائه في البئر وجاءوا لأبيهم سيدنا يعقوب بدم كذب على قميصه وادعوا بأن «الذئب» قد أكله ، ولكن المتحدث ينطق الكلمة بتحريف بسيط فيقول « الديب» بدلا عن « الذئب» ويطلب من الحاضرين أن يرددوا معه « لعنة الله على الديب » والحاضرين يعرفون المقصود

الرئيس ازهري يتلقى السلام الجمهوري في مدخل المعهد وعن يمينه السيد الفيل محافظ بنك السودان وعن يمينه عبد الرحمن احمد المهدي مدير المعهد وخلفه الرئيس ابراهيم نمر نائب المحافظ



بادئ الأمر أن الموظفين يسهرون لقفل الحسابات ولكنه أشير بأن الإضاءة ترجع لأسباب تتعلق بالأمن أما العمل اليومي فقد تم قفله بالنهار ، وتمنى في كلمته تلك لو تمكنت الأجهزة الحكومية أن تحذوا حذو المصارف لا لتقفل حساباتها يومياً فذلك أمر عسير ولكن لكي تقفل الحسابات السنوية بعد بضعة أشهر من نهاية كل سنة مالية حسب النصوص القانونية الملزمة لذلك.

الجمعيات العلمية :

كان رأى الرئيس أزهري أن الضغط المباشر على الموظفين قد لا يأتي بالنتائج المرجوة لتحسين الأداء ومن الأحسن أن ندخل من باب جهدهم الطوعي عن طريق الجمعيات العلمية التي تضم كثيراً من قادة الخدمة العامة ، فكان توجيه سيادته أن نحرك نشاط تلك الجمعيات وأذكر منها على سبيل المثال الجمعية الفلسفية ويرأسها السيد يوسف بدري عميد مدارس الأحفاد والجمعية البيطرية ويرأسها الدكتور جعفر كرار الذي كان يحترم الرئيس كثيراً وبينهما مودة ملحوظة والجمعية الزراعية ويرأسها الدكتور عثمان أبو القاسم وغيرها وكان الرئيس شديد الحرص على المشاركة بإفتتاح مؤتمراتهم السنوية التي يقدمون فيها مجموعة طيبة من البحوث القيمة التي يساهم في إعدادها أعضاء تلك الجمعيات ، وفي بعض الأحيان كان الرئيس يحضر الحفل الختامي ويتسلم التوصيات التي تخرج بها المؤتمرات .

وكان توجيه السيد الرئيس أن نتركهم يستريحون لبعض الوقت مدة أقصاها شهر واحد ثم نكتب للمسؤولين عن تلك الجمعيات بأن الرئيس يريد أن يعرف ما

فعلوه لمتابعة تنفيذ توصيات مؤتمراتهم ، ثم نرسل تذكيراً بعد ذلك بفترة معقولة ، وكان رأى السيد أزهري أننا بهذا الإهتمام من مكتب الرئيس نزكي روح البحث بين قادة الخدمة العامة عن طريق جمعياتهم الطوعية ، فهم أنفسهم الذين يحركون دولاب العمل ويكونون قدوة للموظفين مرؤوسيهم فتسري بينهم روح البحث والتنقيب فتنشط أذهانهم وتزداد قابليتهم للإبتكار والتجديد ، ومن الطرائف أذكر بعد كثرة الملاحقة إتصل بي صديقي دكتور عثمان أبو القاسم وقال لي « يا عبد الرحمن يا أخي الحكاية شنو ، ما تروقونا شوية» .

هذا مثال حي لإسلوب الرئيس المعلم والمربي في معالجة الموضوع الكبير إذكاء روح العمل الجاد في نفوس قادة الخدمة العامة فيترسم خطاهم زملاؤهم الذين يعملون تحت قيادتهم .

بنوك غير ربوية :

أقامت جامعة أم درمان الاسلامية في بداية نشأتها إحتفالاً بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم ، قدموا للرئيس إسماعيل الأزهري بوصفه راعي الجامعة حصيلة الدراسات التي قدمت والتوصيات التي إتخذت وإستهوت الرئيس فكرة قيام بنوك على أساس غير ربوي جاءت ضمن التوصيات الإقتصادية ، ولكي لا تغير الفكرة في مهدها وكمثال لتحريك دولاب العمل ، وجه بالكتابة للسيد وزير المالية والسيد محافظ بنك السودان لمعرفة رأيهما في إمكانية التنفيذ ، وأذكر أننا نجحنا في عقد لقاء بالقصر الجمهوري بين السيد الشريف حسين الهندي ودكتور أحمد عبد العزيز النجار صاحب الفكرة وهو أستاذ مصري كان منتدباً من مصر

للعمل بالجامعة الإسلامية الوليدة ، وتم الإتفاق بينهما بأن يبدأ تنفيذ المشروع بمديرية الجزيرة ، ولولا نجاح إنقلاب مايو ١٩٦٩م باتجاهات يسارية في بدايته لنشأ بنك الإدخار السوداني على الأسس غير الربوية قبل مدة من قيام بنك فيصل الإسلامي في السودان.

لجنة الخدمة العامة :

وكان الرئيس أزهري يميل الى عدم التدخل في ظلامات الموظفين الخاصة مثلاً بالتخطي في الترقية وينصح المتظلم بأن يحتكم إلى لجنة الخدمة العامة التي كان يرى ضرورة إعطائها السلطات الكاملة للفصل في مثل هذه التظلمات وذلك كصمام أمان للحياد في الخدمة العامة وعدم تسييسها ، وكان رئيس تلك اللجنة آنذاك السيد خليل صابر من الإداريين المشهود لهم بالكفاءة والنزاهة والشجاعة في الرأى، وكان محل تقدير السيد الرئيس وثقته ، وأذكر في إحدى المرات أن موظفاً ينتمي للحزب الوطني الاتحادي تظلم من تخطيه في الترقية وكان على رأس تلك الوزارة أحد وزراء الحزب ولعل الموظف كان يعتقد بان موضوعه يمكن حله فوراً بتلفون الرئيس للوزير ولكن الرئيس نصحه بأن يرفع ظلامته للجنة الخدمة العامة وقال له قد يكون كل الخير في ذلك ، وحدث أن أنصفته اللجنة ، ولما تغير نظام الحكم تقدم بعض المتسلقين بشكوى بأن ترقية ذلك الموظف جاءت بمحسوبية ولكن أوضح التحقيق أن الظلم وقع في عهد الوزير الحزبي والأنصاف جاء من اللجنة المحايدة وصدق ما قاله الرئيس بأن كل الخير جاء للموظف عن طريق لجنة الخدمة العامة.

تقديره للجامعة :

جاء في خطاب الرئيس أزهري في عيد الإستقلال أول يناير ١٩٦٩م ما يلي : « من المبادئ التي إرتضاها شعبنا وأكدها ميثاق أكتوبر إستقلال الجامعة ونحن حريصون على تأمين إستقلال الجامعات في بلادنا وبالإضافة إلى إهتمامي بشؤونها من الناحية الرسمية بوصفي راعياً لها فإن للجامعة في نفسي مكاناً خاصاً كمعلم سابق وأرى أن الجامعة ينبغي أن تساير النهضة الإجتماعية والعلمية والثقافية في السودان وقد يرى المسؤولون عن الجامعة إعادة النظر في التركيب الإداري لها لتحقق ذلك وهم وحدهم الحكم في هذا الأمر وإنني سأشد من أزرهم بكل إمكانياتي وخبرتي ، والذي أرجوه أن نتذكر دائماً أن الجامعة هي إحدي المؤسسات القومية التي يجب ان نبتعد بها عن الجدل السياسي الذي يتسم بطابع القلق في هذه الأيام ، فالجامعة يجب أن تظل منارة للعلم والبحث الجاد تهدينا جميعاً الى طريق الخير وتزود بلادنا بأجيال من الرجال المتسلحين بالعلم النافع ليدفعوا عجلة التقدم وخدمة الوطن والمواطنين.

حدثني دكتور عمر محمد عثمان أن دكتور محمد عبد الله نور وشخصه كانا مرشحين لمنصب مدير جامعة الخرطوم وكان دكتور محمد عبد الله أقرب صلة بالرئيس إسماعيل الأزهري وكان له أصدقاء بين قادة الحزب الوطني الإتحادي وعلى رأسهم السيد عبدالهادي حمدتو المراجع القانوني المرموق . قال دكتور عمر بأن صديقه المصباح إسماعيل وكيل وزارة المالية آنذاك وممثل الوزارة في مجلس إدارة جامعة الخرطوم حدثه بأنه وهو في طريقه لإجتماع مجلس الجامعة

لإنتخـاب مدير الجامـعة كان عـليه قبل ذلك أن يقـابل الرئيس إسمـاعيل الأزهري في موضوع آخر ، وبعد الإنتهـاء من حديثه في ذلك الموضوع سأله الرئيس عن رأيه في المرشحين الإثنين لمنصب مدير الجـامعة فرد المصباح بأن كل واحد منـهما في تقديره مؤهل لملء المنصب ، ولكنه يعرف دكتور عمر محمد عثمان معرفة شخصية من عهد الدراسـة بمصر ، ويثق فيه ولذلك ينوي تأييده عند التصويت ، ولم يعلق الرئيس بشيء ولم يتـدخل في الامر رغم إعتقـاد دكتـور عمر مـحمد عثـمـان بأن الرئيس في دخيلة نفسه ربما كان أكثر ميلاً لدكتور محمد عبد الله نور.

وحكى دكتـور عمر محمد عثمان أنه بعد إنتخابه مـديراً لجامـعة الخـرطوم كان يتصل بالقصـر الجمـهوري بين حين وآخـر لتحديد موعد مع الرئيس للتفاكر معه بوصفه راعي الجـامعة ، وكان يتوقع أن يتم اللـقاء بعد بضعة أيام يكون خـلالها قد رتب أفكاره في ما ينوي مناقشته ولكنه يفاجأ بأن الرئيس يوافق على مقابلته على الفور ، وعند اللقاء كان الرئيس أزهري يصر على التحرك من مكتبه للقاء دكتور عمر عند مدخل المكتب ، كما يودعه حتى الباب رغم محاولات دكتـور عمر لإثنائه عن ذلك نسبة لمكانة الرجل ولفارق السن فالرئيس في مرتبة والده وأستـاذه ، كما حاول مدير البروتوكول مراجـعته في ذلك ولكن الزعيم كان يرد بألفاظ يفخم نطقها « هذا هو مدير الجامعة» تقديراً من سيادته لأعلى جهاز تعليمي في البلاد.

نظرته لمن يتصدر العمل العام :

بعد نجاح ثـورة أكتـوبر ١٩٦٤ وإنتـهاء العـهد العـسكري الذي دام ست سنوات حُلت خلالها الأحزاب السياسية ، بدأت قيادات الأحـزاب إعادة تنظيماتها من جديد

إستعدادا لخوض الإنتخابات بعد إنتهاء فترة منبرية أكتوبر المؤقتة ، وظهرت الهيئات النسوية للاحزاب كنتيجة لقرار اعطاء المرأة حق الانتخابات البرلمانية لأول مرة في تاريخنا السياسي.

كنت ماراً أمام منزل الرئيس وكان الباب مفتوحاً وبالداخل مجموعة من المواطنين وبدافع الفضول دخلت لمعرفة ما كان يدور ، وما إن وقع نظر الرئيس عليّ حتى قال بصوت مرتفع « الحمد لله ها قد وصل السيد عبد الرحمن» وبما إنني لم أكن على موعد مع سيادته أدركت أن الرجل يريد أن يتخلص عن طريقي من موقف حرج أو أن يكسب بعض الوقت للإجابة على سؤال ممن كانوا حوله ، وبعد مصافحتي لسيادته وللموجودين بادرني بإستفسار:

قال : هل تعرف يا سيد عبد الرحمن .... (إسم إحدى السيدات ...)

قلت له : هل تقصد الموظفة بوزارة .... ؟

قال : نعم ، وكنت قد سمعت بأن بعض رجال الحزب ينتقدون وجود تلك السيدة بين قائدات الهيئة النسوية للحزب لشائعات تتعلق بالسلوك.

ولذلك قصدت ان تكون إجابتي على تساؤل الرئيس بالدخول في الموضوع مباشرة.

قلت له : إنها إمرأة تزداد جمالاً مع مرور الأيام والسنوات.

قال مستحسناً بداية إجابتي : أيوه « يريدني الاستمرار في الحديث».

قلت : ولها جمهور كبير من المعجبين.

قال مبتسما : يقال إنها معبودة الجماهير ، وكعادته فرك أصبعي يده اليمنى السبابة والوسطى بالإبهام ثم مسح طرفي شاربه ، وإلى هنا كان قد رتب أفكاره للرد على ما أثاره أولئك الحاضرون في مجلسه ، إعتدل في جلسته وقال « بلغني أن أحد الأحياء في الجزء الغربي من هذه الدائرة الإنتخابية « يعني الدائرة الجغرافية التي يقع فيها منزل سيادته» به منازل مشبوهة – يعني ربما تكون مفتوحة للدعارة ، فهل نرفض في الإنتخابات أصوات المواطنين الساكنين فيها ؟ وكان رد الحاضرين أن الحزب أو المرشح لا يرفض مثل تلك الأصوات التي ربما تكون سبباً في فوز المرشح ، فقال الرئيس « إن الشخص المنحرف ربما يفقد الأمل في قبول الناس لتوبته ، ولكنني أعتقد بأن قبوله عضواً عاملاً في العمل العام خاصة في القيادة والأضواء مسلطة عليه قد يكون حافزاً له لسلوك الطريق الصحيح ، ومن ناحية أخرى ليس من العدالة أخذ الناس بالشبهات ، فلو كان لدينا دليل قوي ضد أي فرد سواء أكان رجلاً أو إمرأة لنا العذر في محاسبته وإبعاده من وسطنا ، أما بالنسبة للسيدة موضع الحديث فليس لدينا ما يثبت صحة الإشاعات التي ربما تكون باطلة بدافع الحسد أو الغيرة ، فيستحسن أن نترك الأمر للهيئة النسوية يفعلن ما يبدو لهن بالطرق الديمقراطية ، فإن لم يفعلن شيئاً مع وجود الدليل على الإنحراف هنا تتدخل قيادة الحزب».

وهكذا قادتني قدماى من غير ميعاد لتلقي درس من دروس الوطنية من الزعيم الانسان.

الفصل السادس

قوة الإحتمال والمجاملة والوفاء

كثير من المواطنين القريبين من الرئيس إسماعيل الأزهري وأولئك الذين رافقوه في رحلات طويلة في أنحاء مختلفة من السودان يروون قصصاً مثيرة عن قوة تحمله المشاق وعن مجاملته لمضيفيه بتناول ما يقدم له من المشروبات والمأكولات لايعاف شيئاً من ذلك مهما كان مظهره فهو يتوكل على الله ويحرص على جبر الخواطر.

قال السيد محمود الفضلي قلت للسيد إسماعيل الأزهري نحن نعرف أنك تحب شرب الشاي مخلوط باللبن الحليب فماذا تفعل إذا قدم لك مضيفك الشاي الأحمر - أي بدون الحليب؟ فقال السيد إسماعيل « أشربه دون تردد فقد لا يكون عندهم غيره» .

وعن قوة الاحتمال قال السيد محمود الفضلي بأنه سمع من السيد إبراهيم جبريل : أحد قادة الحزب الوطني الاتحادي ، أنه صحب الرئيس إسماعيل الأزهري في رحلة بإقليم كردفان بغرب السودان وأن الرئيس كلن طيلة اليوم يتناول [illegible] من المأكولات والمشروبات الباردة والساخنة لا يعتذر عن أي شئ حتى لا يك[illegible] خاطر أحد والملاحظ أنه لا يسأل إطلاقاً عن الحمام بل إذا قيل له بالمنزل حمام على مستوى عالي من النظافة يرد بأنه ليس بحاجة لذلك رغم مرور فترة من الوقت يكون أصحابه قد ترددوا خلالها على الحمام عدة مرات ، فإذا بلغت الساعة وقتاً متأخرا من الليل وخلع البدلة ولبس الجلابية عندئذ يقول « أين بيت الراحة؟» ويعني بذلك الحمام .

مع المهندس أحمد الطيب بابكر :

مثل هذه القصة حكاها لي المهندس المعروف أحمد الطيب بابكر وتطرق حديثه إلى جوانب عدة من شخصية السيد إسماعيل الأزهري وقد سردت في الفصل الثاني ما جاء في حديثه عن ديمقراطية السيد الرئيس وبساطته وتواضعه ، أما عن قوة الإحتمال والمجاملة فقد ضرب المثل برحلتين ، قال السيد أحمد كان السيد إسماعيل الأزهري يوكل إليه بعض المهام التي تتطلب تحمل المشقة ونقل الحقائق بصدق ، وصحب السيد إسماعيل الأزهري في عدد من الرحلات الإنتخابية ، الرحلة الأولى التي تحدث عنها كانت وجهتها حجر الطير الواقعة غرب النيل جنوب المتمة بحوالي ستين كيلومتر ، خرج السيد الأزهري من منزله بأم درمان الساعة الحادية عشر صباحاً وبدأ بإجتماع بالخرطوم إستمر حتى الساعة الخامسة مساء ثم بدأت الرحلة إلى حجر الطير عن طريق وادي سيدنا ، وتوقف الركب عند كل قرية في الطريق حيث خرج المواطنون لإستقبال الرئيس وقدموا المشروبات الباردة والساخنة والرئيس يجبر بالخواطر ولذلك بدلاً عن الوصول حوالي الساعة الثامنة مساء فقد بدأت الليلة السياسية في حجر الطير الساعة الحادية عشر مساء وإنتهت في حوالي الساعة الثالثة صباح اليوم التالي ، وجلس المدعوون لتناول طعام العشاء في ذلك الوقت المتأخر وبما أنه كان معداً قبل بضعة ساعات فقد تجمدت الدهون في الشوربة وبقية الأطعمة ، كان الجميع يتفادون الدهون بالتركيز على الغموس في سائل سلطة الخضروات إلا الرئيس أزهري مجاملة منه للمواطنين وعدم إحراجهم كان لا يعاف الأكل والأواني التي إحتوته ويتناول من الشوربة ومن

كل صنف غير مكترث للدهون المتجمدة.

وقال السيد أحمد الطيب ونحن في طريق العودة لأم درمان توقف الرئيس قرب وادي سيدنا وقال هنا مسيد نريد ان نقدم العزاء في فقيد عزيز ، وقابلهم اهل الفقيد بترحاب وكرم ، ولما وصل الركب الى منزل الرئيس الأزهري بأم درمان كان قد مضى عليه منذ خروجه من منزله في اليوم السابق حوالي اربعة وعشرين ساعة لم يذهب خلالها للحمام رغم العروض التي قدمت له في أماكن عدة بانه يوجد مكان نظيف لذلك ، وفي كل مرة كان يرد بانه مرتاح كما انه كان يؤدي الصلوات في مواقيتها ولم يحتاج لتجديد وضوئه ، وبالمقارنة كان جميع من صحبوه في الرحلة قد ترددوا مرات ومرات للحمام ، وقطعا كانت قوة الاحتمال تلك نعمة خص الله بها السيد إسماعيل الأزهري.

ذكر السيد أحمد الطيب ان نفس المشهد تكرر في رحلة اخرى بدأت من القضارف الساعة السابعة صباحا وفي الطريق الى رفاعة توقف السير في القدنبلية بسبب عطل في العربة فقام احد مواطنيها بذبح خروف وأصر عليهم لتناول الافطار وبعدها زاروا الحصاحيصا وطابت والفريجاب وهناك تابعهم وفد من مدني عمر محمد عبد الله وعثمان محمد عبد الله وعزت ابو العلا وكانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحا فوجه الرئيس بعض مرافقيه ومن بينهم السيد أحمد الطيب للتوجه للخرطوم وقرر هو مواصلة الرحلة الى مدني يقول السيد أحمد حتى لحظة افتراقنا لم يذهب السيد أزهري للحمام ولم يفوت أية صلاة عن ميقاتها.

قال السيد أحمد ان الرئيس أزهري كان يتمتع بقوة الذاكرة والتركيز فقد حدث

أثناء الرحلة أن جلس أحد المواطنين على الأرض أمام الرئيس يقص عليه ظلامته وكان الوقت متأخراً ويبدو على الرئيس الإرهاق وهو يستمع مغمض العينين وقد وضع كفه على جبهته فاعتقد المواطن أن الرئيس لم يكن متابعاً لحديثه فهب واقفاً وقال له يا سيدي الرئيس يبدو أنك متعب ففتح الرئيس عينيه وقال له كلا أنا مستوعب لكل ما ذكرت وأخذ يعيد عليه بالتفصيل كل ما ذكره الرجل بنفس ألفاظه، فانبسط الرجل واعتذر عن سوء ظنه.

إختتم السيد أحمد الطيب حديثه معي بقوله ان كثيرين من رفقاء الرئيس أزهري كانوا عظاماً ولكنه كان القدوة وكان المثل وكان اكثر عفة وطهراً ونقاء فليس من الممكن مقارنته بأحد ، وكان يوم تشييعه أبلغ دليل على تقدير الجماهير لعظمته والمكانة السامقة التي وضعوه فيها في عقولهم وقلوبهم ، كان يوماً رهيباً ، مئات الآلاف من المواطنين تدفقت نحو المقابر مشيا على الأقدام فامتلأت الميادين والشوارع والأزقة بالبشر ولم يكن من الممكن ان يصطفوا في صفوف منتظمة فنادى أحدهم من مكبر الصوت بأن يتجه كل فرد نحو القبلة ويصلي في مكانه . اللهم اغمره برحمتك وغفرانك إنا لله وإنا إليه راجعون « إنتهى حديث السيد أحمد الطيب ».

وحدثني أحد مرافقي الرئيس في طوافه على الأقاليم بأنه حسب العادة السودانية جاء الجيران في الصباح الى حيث قضى الرئيس ليلته ويحمل كل واحد منهم الشاي ويصر على أن يتناول السيد الأزهري كوباً من الشاي الذي احضره ، طلب الرئيس أزهري إحضار براد فارغ « إناء الشاي » ووضع فيه قليلا من الشاي الذي أحضره كل واحد من الجيران ثم ملأ كوباً من الشاي المخلوط وتناوله وبهذا الاسلوب الحكيم أرضى كل الحاضرين ولم يكسر خاطر واحد منهم.

مع الشيخ عمر إسحق :

حكى لي القصة التالية الاستاذ الهادي أبوبكر إسحق قال حدث في الخمسينات والأزهري رئيس الوزراء أن زار السودان وفد مصري كان محل حفاوة وأقيمت له عدة حفلات إستقبال من هيئات وأفراد سودانيين ، ثم أقامت السفارة المصرية حفلاً كبيراً رداً على تلك الإحتفالات وكان من بين المدعوين الشيخ عمر إسحق أحد كبار رجال التعليم في السودان الذي اكتشف في اللحظات الأخيرة المتبقية لميعاد الدعوة أن عربته الخاصة معطلة ، ولم يكن بين جيرانه من يمتلك عربة خاصة أو للأجرة ، فخطر له أن إتصل تلفونياً بالسيد إسماعيل الأزهري وسأله إن كان ذاهباً للحفل ليصحبه معه ، فجاء إليه بعربته الخاصة وأخذه من بيته ، وفي الطريق إنتبه الشيخ عمر بان الأزهري كان يلبس القميص والبنطلون بدون بدلة وربطة عنقه ويلبس الشبط فقال له إن ذهابه بذلك المظهر غير لائق وهو رئيس الوزراء وقطعاً يكون منتقداً ، فوجئ برد السيد أزهري بانه في الحقيقة لم يكن ضمن المدعوين لذلك الحفل وانه تاكد عند اتصال الشيخ عمر إسحق به انه لم يجد وسيلة تنقله لمكان الحفل فقرر ان يقوم بنفسه لتوصيله إلى هناك .

شعر الشيخ عمر إسحق بالحرج لما سببه من مضايقه للرئيس وازدادت دهشته عندما قال له الرئيس بعد ان أوصله لمكان الاحتفال – متى تريد ان أرجع لتوصيلك للمنزل – فاقسم الشيخ عمر أن ذلك لن يحدث أبداً وأنه حتماً سيجد بين المدعوين من يقوم بذلك ، ما رأي القارئ في هذا المستوى الرايع من المجاملة والتواضع.

مع السيد عبد الله خليل :

السيد الاميرالاي عبد الله خليل سكرتير حزب الامة ورئيس الوزراء في الحكومة التي أعقبت الحكومة الوطنية الأولى بعد الاستقلال ، عرف بالحزم والكبرياء ، وكان تمسكه برأيه قد وصفه البعض بعدم المرونة في التعامل مع الآخرين وذلك أغضب منه كثيرين وإبتعد عنه عدد من الذين يفترض ان يكونوا قريبين منه ، وهو خارج الوزارة مرض لفترة ليست قصيرة لزم فيها بيته ومنعه كبرياؤه من طلب المساعدة من أحد .

كانت سمة التسامح واضحة بين القادة السياسيين على اختلاف مشاربهم في تلك الايام ، وعلى الرغم مما استقر في الازهان بان السيد عبد الله خليل عندما احس بدنو سقوط حكومته وهو رئيس الوزراء طلب من الجيش السوداني استلام السلطة فكان إنقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م بقيادة الفريق إبراهيم عبود ، على الرغم من ذلك والخصومة السياسية ، فان الرئيس إسماعيل الأزهري كان يزور السيد عبد الله خليل مراراً في منزله ، هذا وقد نشرت صحيفة « الدار» السودانية حلقات توثيقية عن حياة الأميرالاي عبد الله خليل ثم جمعت في كتيب نشر في أغسطس ١٩٩٥م ، وقد جاء فيها على لسان السيدة الفضلى نبيهه محمد كامل حرم السيد عبد الله خليل قولها :« وكثيرا ما كان الزعيم الخالد إسماعيل الأزهري يفاجئنا بزيارات منزلية في اوقات متأخرة من الليل ويجلس مع صديقه عبد الله خليل للساعات الطوال يتحدثان بجدية وإهتمام» وورد في تحقيقات صحيفة « الدار» ما يلي : ومما يجدر ذكره ان الزعيم الخالد إسماعيل الأزهري وهو في رأس السلطة كرئيس

لمجلس السيادة كان على اتصال دائم بالسيد عبد الله خليل وعندما مرض الاخير كان الأزهري يعاوده يومياً ووجه بتكملة اجراءات سفره وعائلته لانجلترا للعلاج ، وقد أشرف بنفسه على ذلك حتى تحقق ما أمر به ، ولكن عندما عاد عبد الله خليل معافى بحمد الله لارض البلاد ولسانه يلهج بالشكر للأزهري وجده خارج السلطة بعد ان استولى جعفر نميري عليها في مايو ١٩٦٩م» ، قال أمير عبد الله خليل الدبلوماسي المعروف « أثناء تواجدنا هناك « يقصد بالمملكة المتحدة» وقع انقلاب مايو وعندما حضرنا للسودان كان رفيق دربه الأزهري خارج السلطة فقال الزعيم عبد الله خليل هكذا هي السلطة لا ولن تدوم أبداً » .

المعاش الاستثنائي :

كان السيد إسماعيل الأزهري بصلاته الاجتماعية الواسعة ملماً بتدهور الحالة المالية لعدد من السادة الذين تعاقبوا على عضوية مجلس السيادة وتفاكر في الامر مع صديقه السيد الدرديري محمد احمد نقد والسيد محمد عبد الحليم محجوب مدير شؤون المستخدمين بوزارة المالية وتوصلوا الى إمكانية تخصيص معاش استثنائي لكل من تقلد منصب عضو مجلس السيادة او رئيس الوزراء يضمن لهم العيش الكريم في حياتهم وبالفعل صدر القرار بذلك من مجلس السيادة على اساس صرف المعاش الاستثنائي لمن يستحقه في حياته و لا يورث بعد وفاته ، وبما ان أعلى معاش لوكيل الوزارة آنذاك كان مائة جنيه في الشهر « عملة بلادنا كانت مرتفعة القيمة» فقد تقرر ان يكون المعاش الاستثنائي المشار اليه مائة وخمسة وعشرين جنيها ، واعتذر بعضهم عن قبول ذلك المعاش لانه كان ميسور الحال ،

وبما ان الاجراءات لتنفيذ القرار أخذت حوالي العام ، وبما أن التطبيق كان بأثر رجعي من تاريخ صدوره فقد كانت حصيلة المبلغ المتجمع للفرد عن «١٢» شهراً تساوي واحد الف وخمسمائة جنيه .

أذكر أنني قرأت رسالة من السيد سرسيوايرو عضو مجلس السيادة الأول مرسلة من جنوب السودان على ورقة خضراء اللون للسيد إسماعيل الأزهري يشكره فيها على اللفتة الإنسانية ويعتذر بأنه لا يستطيع إعادة الكتابة للمرة الثالثة فقد أعاد الكتابة لأن دموعه كانت تنزل على الحبر فتتسخ الورقة وبالفعل كانت الورقة مطموسة في أكثر من موضع ، قال سيادته إن له عدداً كبيراً من الأولاد والبنات فرّ أغلبهم من حوله بعد أن إنزوي في قريته ولم يكن له دخل يعينه لأعاشة أسرته الكبيرة ، والدموع التي بللت الرسالة كانت دموع الفرح لإستلامة المبلغ المتجمع وبالمعاش الشهري الذي يضمن له مع أسرته العيش الكريم.

مع السيد عثمان حسن عثمان :

السيد عثمان حسن عثمان من مهندسي المساحة السودانيين الأوائل وقد عرف بالنزاهة والإنضباط في حياته وإشتهر بالدقة في مواعيده لدرجة أقرب إلى الخيال، وبعد تقاعده من الخدمة إفتتح متجرا بسوق أم درمان وكان في تنقلاته يستغل الترام وسيلة المواصلات الأساسية المتوفرة عندئذ داخل العاصمة المثلثة كان السيد عثمان يستغل الترام الذي يعمل بين أبوروف – الشاطئ الغربي للنيل – والمحطة الوسطى بأم درمان وكان الترام منضبطاً في مواعيده وكان السيد عثمان يرجع من عمله بالسوق في ميعاد لا يتقدم ولا يتأخر.

وفي إحدى المناسبات الإجتماعية جلست بقرب السيد عبد الهادي حمدتو المراجع القانوني المعروف وكان مقرباً من السيد إسماعيل الأزهري ، حملني السيد عبد الهادي رسالة للسيد الرئيس بأن السيد عثمان حسن عثمان عاتب على سيادته فقد زار الرئيس في منزله مرتين مهنئاً في واحدة باداء السيد إسماعيل لفريضة الحج وفي الثانية بمناسبة أحد الأعياد الدينية أو القومية ، وفي كل مرة يحدد السيد عثمان كعادته مدة لما تستغرقه الزيارة ، مثلاً عشر دقائق ، وإنتهت المدة التي حددها للزيارة في الحالتين ولم يجد الفرصة للمؤانسة مع الرئيس لكثرة الزوار وخرج السيد عثمان من غير أن يودع الرئيس واكتفى بتسجيل حضوره وقال للسيد عبد الهادي حمدتو إن الرئيس لم يسأل عنه بعد ذلك .

أخبرت السيد الرئيس بعتاب السيد عثمان حسن عثمان له حسب رسالة السيد عبد الهادي ، وكان الرئيس قد رتب مع عمه السيد محمد الأزهري مدير مصلحة المخازن والمهمات بعض اللقاءات مساء ذلك اليوم في شمبات الواقعة شرق النيل شمال الخرطوم بحري ، قرر الرئيس على الفور أن يسجل مع السيد محمد الأزهري زيارة خاصة للسيد عثمان وهم في الطريق من أم درمان إلى شمبات ، ولعلمه بدقة الرجل في مواعيده إختار الميعاد الذي يكون قد رجع فيه من عمله حوالي المغرب ، وأخذ قسطاً معقولاً من الراحة وكلفني أن أتصل بالسيد عثمان حسن عثمان واخبره بأن السيد الرئيس وعمه محمد الأزهري سوف يزورانه في الساعة السابعة مساء ذلك اليوم ، دارت بيننا المحادثة التالية:

قلت له : السلام عليكم وكيف الصحة ، أنا عبد الرحمن أحمد مهدي من مكتب السيد الرئيس أزهري .

قال : أهلاً وسهلاً أنا الحمد لله بخير.

قلت له : السيد الرئيس يقريك السلام ويقول لسيادتك إنه وعمه السيد محمد الأهري سوف يزورانك بالمنزل الساعة السابعة مساء اليوم.

سألني : هل سيتناولون معنا العشاء؟

قلت له : لا أعتقد لأنهما على موعد آخر في شمبات.

قال لي : أنا لا يهمني ما تعتقد ، عاوز أعرف الحقيقة حتى أكون على إستعداد ، على كل حال الجماعة ديل كانوا لايكرهون أكلنا ولا أعرف موقفهم الآن.

قلت له : سوف أستوثق من السيد الرئيس وإن شاء الله أتصل بسيادتك مرة أخرى .

دخلت عليّ السيد الرئيس وقلت له : «والله العم عثمان فتح فيكم نار» وقصصت عليه ما دار في التلفون ، فقال الرئيس دون تردد « إذن لابد من العشاء اليوم مع السيد عثمان حسن عثمان» واتصل تلفونياً مع السيد محمد الأزهري وطلب منه أن يلغي مواعيد شمبات، حاول السيد محمد إقناعه بأن جماعة شمبات عملوا إستعدادهم وإلغاء الميعاد معهم ربما يغضبهم ، فقال له الرئيس « ترضية أهل شمبات سهله ولكننا لا نقدر على زعل السيد عثمان حسن عثمان » ووجهني بأن أتصل مرة أخرى بالسيد عثمان وأؤكد له أن الرئيس وعمه سيتناولان معه العشاء ورداً على قول السيد عثمان بأنهم كانوا لا يكرهون أكله أضاف بروح الدعابة « قل له نريد أن نتأكد إن كان أكلهم لا يزال حلواً كما كان أم تغير».

وتلك القصة توضح مدى تقدير الرئيس إسماعيل الأزهري للسيد عثمان حسن عثمان وأمثاله من الرجال الذين عرفوا بالتمسك بالقيم الرفيعة ويسعى قدر الإستطاعة لإرضائهم وإقناعهم بأن مكانهم محفوظ في سويداء قلبه.

المجاملات الاجتماعية :

أود أن أسجل هنا ما ذكرته عرضا فيما تقدم عن صلاته الاجتماعية والحكاية مع السيد عثمان حسن عثمان مثال لذلك ، فالسيد إسماعيل الأزهري كان يحرص على تلبية كل دعوة توجه له من مواطن يحتفل بزواج ولد او بنت او بمولود جديد أو نجاح أحد الأبناء ، ويعود المرضى سواء بالمنزل او بالمستشفى ويهنئ بمناسبة العودة من الأراضي المقدسة بعد أداء فريضة الحج أو بعد العمرة وزيارة المصطفى صلى اله عليه وسلم ، كما انه يجامل بالاشتراك في تشييع الجنازة ويقف مع المشيعين بالمقابر الى نهاية مراسم الدفن ، وإذا فاته ذلك فلن يفوته زيارة أهل الفقيد بمنزلهم للعزاء ، يفعل ذلك كله في تواضع جم وهو في قمة السلطة مثلما كان يفعل وهو خارجها ، وفي المناسبات الوطنية والاعياد الدينية يظل باب منزله مفتوحا يستقبل الجماهير بنفسه فرداً فرداً لا يكل ولا يمل مهما تعرض له من الاعياء .

ومن خلقه السمح يخاطب كل فرد بلقب « باسيد» وقد لاحظت ذلك عن قرب في الفترة التي تشرفت فيها بالعمل مع سيادته في القصر الجمهوري فهو يخاطب كل فرد سواء الموظفين على اختلاف درجاتهم الوظيفية او العمال يخاطبهم بلفظ «ياسيد» وكان ذلك مبعث سرور لهم وفي الفصل التالي حكاية عن شكوى حاجب الرئيس العم عثمان من أحد موظفي قسم السكرتارية بانه حال دون مقابلته

الرئيس لمدة يومين وبذلك حرمه من سماع كلمة « ياسيد» من رئيس البلاد فأصابه الإكتئاب ولما أخبرت السيد الرئيس بذلك وصفت كيف حلّ الموقف وأعاد البسمة للعم عثمان ولا عجب فالرئيس مجامل ويتمتع بعاطفة إنسانية جياشة.

الفصل السابع

لمحات إنسانية

مع الحاجب عثمان داؤود :

في أحد الأيام كان الإرهاق بادياً على وجه السيد الرئيس فتحدث اليه بعض أفراد السكرتارية ليرجع إلى المنزل فيأخذ قسطاً من الراحة ولكنه رفض متعللاً بأنه يريد ان ينجز أمراً هاماً ، إتصل السيد أحمد حسين الرفاعي السكرتير الأول بالدكتور أحمد عبد العزيز يعقوب كبير أخصائي الجراحة والباطنية والقلب ، وكانت له مكانه خاصة في قلب الرئيس الأزهري وكان يناديه بالدكاترة أحمد وذلك لحصوله على درجات التخصص العلمية الرفيعة في مجالات مختلفة من الطب وأخبره الرفاعي بما لوحظ من الإرهاق على الرئيس.

وصل الدكتور أحمد للقصر الجمهوري وأفرغ في عضلة إحدي يدي الرئيس دواء من حقنة جميلة مصنوعة من مادة البلاستيك ، وكانت تلك أول مرة نشاهد فيها ذلك النوع من الحقن التي إنتشر إستعمالها بعد ذلك ، شرح لنا الدكتور بأن النوع القديم المصنوع من الزجاج في هيكل من الحديد ، كان يتحمل التعقيم بالماء الساخن ولذلك يمكن إستعمال الواحدة منه عدة مرات وقد يكون التغيير فقط للإبرة التي تركب في الجزء الأمامي ، أما النوع الجديد المصنوع من البلاستيك فلا يتحمل الماء الساخن الذي ربما يتسبب في بعض التفاعلات الكيماوية مع مادة البلاستيك ، ولذلك رغم جمال منظرها يستغنى عنها بعد الإستعمال مرة واحدة فقط ، وبالفعل رمى بها في سلة المهملات .

في نهاية ذلك اليوم أو صباح اليوم التالي قام العم عثمان داؤود المشرف على نظافة مكتب الرئيس بتفريغ سلة المهملات وعثر على حقنة البلاستيك وظن أن الطبيب أخطأ سهواً بوضعها في السلة فاحتفظ بها لا أدري كم من الوقت وهو يتلهف لوصول الرئيس للمكتب ليطلعه على الأمر ، وأدرك الرئيس أهمية الموضوع بالنسبة للعم عثمان فلم يريد أن يكسر خاطره بأن الحقنة الجميلة بعد إستعمالها صارت من المهملات وقال له « ياسيد عثمان عندما يحضر دكتور مبارك الفاضل شداد رئيس الجمعية التأسيسية ، وهو طبيب مشهور وكان على موعد مع الرئيس في ذلك اليوم ، أحضر الحقنة لنعرضها عليه » .

تقدم العم عثمان بالحقنة العجيبة وعرضها الرئيس على دكتور مبارك الذي أعاد ما كان قد شرحه دكتور أحمد عبد العزيز ولترسيخ الحقيقة في ذهن العم عثمان قال الأزهري لدكتور مبارك « يعني دكتور أحمد لم يخطئ عندما رمى بالحقنة في سلة المهملات؟ » فأكد دكتور مبارك أن ذلك هو موضعها الصحيح ، فإلتفت الرئيس للعم عثمان قائلا « ياسيد عثمان يبدو إننا كبرنا» يعني تقدمت بنا السن.

أنظر إلى هذا الرجل الإنسان كيف عالج الأمر بإسلوب قصد به رفع معنويات العم عثمان العامل البسيط وشرح له بإسلوب المعلم هذا الإختراع الجديد في إجتماع مصغر للقمة جمع بين العامل البسيط ورئيس الجمهورية ورئيس الجمعية التأسيسية ، ويمكن للقارئ أن يتخيل النشوة التي ملأت نفس العم عثمان داؤود فراح يشرح لكل من قابله داخل القصر الجمهوري وخارجه قصة الإكتشاف العجيب.

شكوى حاجب السيد الرئيس :

العم عثمان داؤود الذي سبق ذكره حدثني بأنه عمل بالقصر الجمهوري لحوالي أربعين عاماً قبل مجئ السيد أزهري على رأس الدولة ، وخلال فترة عام ونصف العام التي جمعتني به قبل إنقلاب مايو ١٩٦٩م كان يشغل وظيفة « الحاجب » الذي يخدم رئيس مجلس السيادة يشرف على نظافة المكتب ويحمل الحقيبة من عربة الرئيس عند وصوله في الصباح ويحملها مرة أخرى آخر اليوم من مكتب سيادته إلى العربة ويؤدي ما يطلب منه من خدمة خلال اليوم ، كان منظره جذاباً باللبس التركي - البنطلون الأبيض الطويل والجاكيت الأبيض المزركش باللون الذهبي والطربوش المغربي على الرأس .

والسيد التيجاني أحمد حسن كان يلازم السيد إسماعيل الأزهري في الليالي السياسية وكان يهتف منادياً به رئيساً للجمهورية وتحققت أمنيته بإنتخاب السيد أزهري رئيساً لمجلس السيادة وتم تعيينه ضمن سكرتارية الرئيس وكان من فرط حبه للرئيس أزهري لا يأتمن عليه رجال الأمن أنفسهم فكان يمسك بباب المكتب ويتأكد من شخصية كل زائر للرئيس وهذا التسلط أوقعه في مشاكل كثيرة وكان من بين المتضررين منه العم عثمان داؤود حاجب السيد الرئيس .

قال لي العم عثمان إنه ينعم بعطف من الرئيس أزهري لم يألفه في كل من سبقوه من الحكام وأنه الوحيد الذي يلقبه « بالسيد» وهو العامل البسيط الذي لم يسمع هذا التكريم من أي موظف بالقصر الجمهوري ناهيك عن الرؤساء السابقين ، تحدث معي العم عثمان وهو حزين يبث شكواه بأن السيد التيجاني وقف حائلاً

بينه والرئيس فصار يحمل الحقيبة في الصباح وآخر النهار ، وإذا قرع الرئيس الجرس ليطلب مشروباً أو أية خدمة أخرى يأمر التيجاني العم عثمان بالوقوف خارج المكتب ويدخل هو ليعرف ما يريده الرئيس ثم يرجع ويأمر العم عثمان بالتنفيذ وبعد ذلك يستلم هو المشروب ليدخله للرئيس ، قال العم عثمان إن هذا السلوك حرمه من عطف الرئيس ومن سماع كلمة « ياسيد عثمان» من سيادته وإستمر هذا الحال لمدة يومين فلم يتحمل الإكتئاب أكثر من ذلك ولم ير في الأفق تباشير نهاية لذلك الموقف فلجأ إليّ يبث شكواه ووعدته خيراً.

دخلت على السيد الرئيس وكنت مبتسماً مما سمعته فسألني الرئيس عن الأمر فقلت له « مشكلة ما أظن مثلها عرض على سيادتك في حياتك » وأخبرته بما أسر به العم عثمان ، فقال لي هذا موضوع بسيط وسترى بنفسك الحل العاجل الفوري ، قرع الجرس فجاء التيجاني فلم يشعره الرئيس بالشكوى أمامه وطلب منه أن ينادي « السيد» عثمان وبحضور التيجاني وشخصي صافح الرئيس العم عثمان وظل ممسكاً بيده بعض الوقت كأنما قصد أن يعطيه شحنة عاطفية يعوض بها ما إفتقده في اليومين السابقين ، وسأله عن غيابه في تلك الفترة وهل نقلوه إلى قسم آخر دون علمه ؟ وتلعثم الرجل فطلب منه الرئيس كوباً من الشاي وأن يشرف بنفسه على عمله وأن يحضره بنفسه ، وقال له بأنه مشتاق للشاي المضبوط الذي عوده عليه السيد عثمان ، فتهللت أساريره وهرول مسرعاً إلى البوفيه ، وحسب البرتوكول المعروف بين العمال فهناك من يقوم بالعمل ثم هناك عامل آخر في درجة أعلى لا يتنازل لغيره ليحمل المشروبات لمكتب الرئيس ، وإكتفى العم عثمان بمرافقة

هذا الأخير ولم يكن في وسع التيجاني الإعتراض على دخولهما بل رافقهما فقط ، وناول العم عثمان الرئيس كوب الشاي فشفط شفطة كبيرة وقال مبدياً إعجابه «الله ده الشاي المضبوط ياسيد عثمان ضروري يومياً في مثل هذا الميعاد تحضر لي بنفسك مثل هذا الشاي».

وهكذا كان الحل الدائم لما شكا منه العم عثمان وانزاحت عنه الكآبة بفضل حكمة الرئيس الإنسان وعطفه على الضعفاء ، قال لي الرئيس « أيه رأيك يا سيد عبد الرحمن قلت له « والله خطير ياسيد الرئيس ».

روح الدعابة :

مع السيد عبد الرحمن عابدون :

تحلى السيد إسماعيل الأزهري بقدر كبير من روح الدعابة وقد يرسل النكتة دون ان يضحك واذا لم يكن المستمع مدركاً لتلك الميزة عند الرئيس قد لا ينتبه الى النكتة التي أرسلها أو المعنى الحقيقي الذي قصده من وراء حكاية طريفة ذكرها في كلمات إعتراضية ، أذكر أنه بناء علي طلب عدد كبير من النواب قرر مجلس السيادة في مساء ذلك اليوم حل الجمعية التأسيسية وكان السيد عبد الرحمن عابدون العضو الوحيد في المجلس الذي اعترض على القرار ، وكان سيادته يمثل جناح السيد الصادق المهدي في حزب الامة عند الانقسام الذي حدث في الحزب ، والمعروف ان اغلبية نواب حزب الامة في الجمعية التأسيسية آنذاك انحازوا للسيد الصادق المهدي ، ولكن كان هناك ادعاء بان غالبية جماهير الحزب كانت تؤيد الامام الهادي المهدي عم السيد الصادق ، فلم يكن غريباً اعتراض السيد عبد الرحمن عابدون على

قرار مجلس السيادة بحل الجمعية التأسيسية.

حان وقت صلاة العشاء فوقف السيد عبد الرحمن عابدون يصلي منفرداً ليس بعيداً عن السيد إسماعيل الأزهري الذي كان مشغولا بالنظر في بعض الأوراق على مكتبه وكنا ، بعض الموظفين ومجموعة من النواب ، نقف حوله فسمع السيد الرئيس السيد عابدون يقرأ في صلاته بصوت مرتفع — لعله والله أعلم أراد ان يسمع السيد الرئيس – قرأ الآية الكريمة « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » فابتسم السيد إسماعيل الأزهري وقال « كتب وإنتهى» وبالطبع كانت الاشارة لقرار مجلس السيادة بحل الجمعية التأسيسية .

مع السيد عبد الماجد أبو حسبو :

السيد عبد الماجد أبو حسبو من رفقاء الرئيس إسماعيل الأزهري وقد تقلد مناصب وزارية مختلفة في العهد الوطني الديمقراطي . حكى السيد عبد الماجد انه كان ذات مرة يقود عربته وبجانبه الرئيس أزهري وفي المقعد الخلفي السيد علي الازهري شقيق الرئيس. كانوا يتبادلون الآراء في موضوع ما وأيد الرئيس وجهة نظر السيد عبد الماجد. واختلف معهما السيد علي الأزهري فغضب ومن غيظه خاطب الرئيس بصوت مرتفع مستنكراً وقوفه إلى جانب السيد عبد الماجد « تؤيد هذا التافه الحقير يا حمار » فضحك الرئيس أزهري ورد عليه قائلا « حمار لأنى أخوك» وضحك السيد عبد الماجد فقد خففت عليه هذه النكتة اللطيفة اللاذعة ما وصفه به شقيق الرئيس بأنه تافه حقير .

مع مختار حمدتو :

في جلسة أنس كان حديث الحاضرين يدور حول تربية الأبناء قال السيد مختار حمدتو مخاطباً الرئيس أزهري « عندي واحد من أولادي في الكتاب - المرحلة الأولية - متقدم في دراسته وغالباً يكون أول دفعته . دخلت المنزل متعبا في العصر وجدته يعلب بالكرة في حوش المنزل فنهرته وقلت له سيب اللعب امشي ذاكر دروسك فذهب يطنطن وسمعته وأنا داخل ... جرة يقول لامه في البرندة « انا ما عارف أبوي عاوزني أطلع نمرة كم في الفصل » ضحك الرئيس وقال له يا مختار هناك كلمة مهمة قالها الولد لامه وانت لم تسمعها قال لها « ابوي الغبي دة » . لأن الولد كان أول الفصل وضحك الرئيس ومختار.

حبه للموسيقى :

الأستاذ بشير محمد سعيد تتلمذ على السيد إسماعيل الأزهري . فالمعلومة التي يسجلها عن أستاذه لاشك في صحتها . ذكر في كتابه « الزعيم الازهري وعصره » أن السيد إسماعيل الأزهري عندما كان مدرسا بكلية غردون التذكارية كان مسؤولا عن ثلاث جمعيات : جمعية الموسيقى . وجمعية الآداب والمناظرة . وجمعية التمثيل وأنه في جمعية الموسيقى كان يجلس قتاً غير قصير يستمع الى أعضائها يعزفون على العود والكمان ويوجههم ويصغى إلى ألحانهم بكل مشاعره في نشوة وطرب مكتوم ينم عنه بريق عينيه وإبتسامته . ولم أعرف عنه أنه كان عازفاً . ولكن أحد زملاء شبابه حدثني أنه كان يقتني في ذلك الزمان آلة موسيقية . غير أنني لا أستطيع أن أجزم بصحة هذا الذي سمعت » . ولعله من المناسب أن أذكر هنا أن

السيدة سامية كريمة السيد الرئيس ذكرت لي بأنهم منذ الصغر وجدوا في منزلهم آلة البيانو .

ولعله من المناسب أن أذكر أن السيدة أم كلثوم سيدة الغناء العربي زارت السودان بدعوة من السيد عبد الماجد أبو حسبو وزير الإعلام وكانت بعد هزيمة عام ١٩٦٧م تطوف بكثير من البلدان تجمع المال للمجهود الحربي لرد العدوان الإسرائيلي ، حرص الرئيس إسماعيل الأزهري على الإستماع إليها وهي تغني على خشبة المسرح القومي بأم درمان ، يتابعها بكل مشاعره في نشوة واضحة تؤكد ما ذكره الأستاذ بشير محمد سعيد .

مثال آخر أسوقه يؤكد إستمتاعه بالموسيقى والغناء الجيد أذكر أنني رافقت سيادته ضمن وفد سوداني إلى مقديشو عاصمة الصومال أيام الرئيس شارماركي للمشاركة في إحتفال قومي ، وكانت قد سبقتنا إلى هناك فرقة فنية سودانية ، وكان من أبرز أعضائها الفنان المطرب الكبير صلاح بن البادية ، وفي حفل بالمسرح حضره الرئيسان جذب صلاح الحاضرين بأدائه الجميل وصفقوا له كثيراً خاصة عندما غنى الأغنية الشهيرة التي كانت جديدة عندئذ ومطلعها « سال من شعرها الذهب * فتدلى وما انسكب * كلما عبثت به نسمة * ماج واضطرب»وصفقوا طويلا عندما مد صوته في نفس طويل « فنن لا ولا فنن».

وبعد العودة من مقديشو تحدث السيد الرئيس أزهري مع السيد عبد الماجد أبو حسبو وزير الإعلام في التلفون عن إبن البادية مبدياً إعجابه بصوته العذب والنفس الطويل والمخارج الجميلة للحروف ، واقترح على السيد أبو حسبو أن ينظر

في إمكانية إرسال صلاح بن البادية للخارج لدراسة الفن الأوبرالي ، فان خصائص صوته قد تناسب فن الأوبرا ، فقال له السيد عبد الماجد مداعباً « لم نكن نعلم أنك فنان ياسيد الرئيس » فقال الرئيس « أنا ولو أنني لم أمارس الغناء ولم أشترك مع الشيالين « الكورَس» لكنني أتمتع بأذن موسيقية تفرق بين الأصوات الجميلة وغير الجميلة » والطريف هنا أن الرئيس عندما ذكر « الشيالين» أراد أن يرد على السيد عبد الماجد أبو حسبو بنفس روح الدعابة فقد قيل ان السيد عبد الماجد في شبابه أشترك ضمن الكورس المصاحب لواحد من المغنيين القدامى.

هذا ومن الأمثلة التي تبرهن على ما تمتع به السيد إسماعيل الأزهري من خفة الروح والدعابة القولة اللطيفة التي تناقلها الناس عنه عندما كان مدرساً وأراد الإنجليز المستعمرون تحجيم نشاطه السياسي بمؤتمر الخريجين فقرروا نقله الى مدرسة حنتوب الثانوية بالجزيرة حديثة الإنشاء عندئذ ، قال قولته اللطيفة قايلين ح نتوب نقلونا لي حنتوب لكن مش ح نتوب » ، إستقال من الوظيفة الحكومية وتفرغ للعمل السياسي.

الفصل الثامن

الرجل المتدين

ذكرت فيما تقدم ما جاء في كتاب « الزعيم الأزهري وعصره» للأستاذ بشير محمد سعيد بأن الزعيم الأزهري كان رجلاً تقيا يؤمن بالله وكتابه ورسوله ، يؤدي صلواته في خشوع ، ويصوم شهر رمضان ، يحج بيت الله الحرام ، ويتزكي ، ويرتل القرآن ترتيلا .

تلاوة القرآن :

أجرى مذيع بإحدى الإذاعات المصرية حديثاً مع الرئيس إسماعيل الأزهري وسأله عن هواياته فذكر الرئيس إنه يحب قراءة القرآن الكريم كلما وجد فرصة لذلك ، فسأله المذيع عن أحب المقرئين اليه وهنا لوحت بيدي للمذيع ليوقف التسجيل واستاذنت الرئيس بأن يعتذر عن الإجابة حتى لا يظهر كرئيس للجمهورية بالتحيز لبعض المقرئين السودانيين دون غيرهم ولكن الرئيس أزهري رغب في الإجابة وإستمر التسجيل وبالفعل ذكر أسماء بعض المقرئين المصريين الذين إشتهروا بالتلاوة الجيدة الجذابة ، ثم ذكر الشيخ يوسف إبراهيم النور وهو من علماء الدين السودانيين وكان من رجال القضاء الشرعي المرموقين كما كان إماماً لمسجد بحى الملازمين بأم درمان ، ليس بعيدا من منزل الرئيس . ولكن الرجل لم يكن من المقرئين الذين عرفهم الناس من أجهزة الإعلام ، الإذاعة والتلفزيون ، ولم يتطرق الرئيس لواحد من أولئك في رده على سؤال المذيع المصري ، وفي دخيلة نفسي كتمت الضحك لاحساسي بالكيفية التي تفادى بها الرئيس الإحراج .



بالاراضي المقدسة الرئيس ازهري وابنه محمد
وعبد الرحمن نديم رئيس الديوان وحرمه
وفي اليمين العميد عثمان حسين

فذلك عرض زائل .

وفي اللقاء مع السيدة سامية كريمة السيد الرئيس أكدت بأنه كان يحرص على قراءة القرآن كلما وجد فسحة من الوقت ، ويبدو أنه كان دائم النية بأن يختم قراءة المصحف الشريف ، فقد كان يستعمل مؤشراً يحفظ به الموضع الذي توقف فيه عن القراءة ، وقالت إنه ذكر بأنه خلال فترة السجن الأخير الذي إنتهى بوفاته تمكن بحمد الله من ختم القرآن عدة مرات .

وذكر السيد أحمد إسماعيل أبو بأن المساهمات لمسجد السيد المكي كانت برعاية السيد إسماعيل الأزهري وأن التجمع بغرض التبرع كان يتم بمنزل السيد الأزهري وكان تبرعه الشخصي بما يعادل مرتبه لشهرين « لعل ذلك تم بالتقسيط » كما تبرعت حرم الرئيس لنفس الغرض .

صحبة الشيخ الطيب السائح :

السيد الصادق أحمد الحجازي كان يزور الرئيس أزهري من حين لآخر وكان يؤذن له حسب توجيه الرئيس بمقابلته فور وصوله ، يقابله الرئيس في مكتبه أو ينتقل الرئيس إلى مكتبي الملاصق لمكتب سيادته ، وفي كل مرة لا يستمر اللقاء لأكثر من دقيقتين أو ثلاث دقائق ، ولم يكن أحد يدري سبب إهتمام السيد الرئيس بذلك الشاب الذي كان يحسده البعض على تلك الحظوة.

بعد نجاح إنقلاب مايو ١٩٦٩م ثم وفاة الرئيس الأزهري حدث أن ذهبت في عصر يوم من الأيام إلى أحد الجيران بالحى تلبية للدعوة بمناسبة عقد قران إبنتهم وهناك فوجئت أن العريس هو الصادق أحمد الحجازي وكان على رأس المدعوين

الشيخ الطيب السايح الرجل الصالح المعروف عند أهل السودان واشتهر ببناء المساجد التي يكتمل تشييدها في فترة زمنية قصيرة لدرجة الإعجاز ، وكان الصادق الحجازي من ألمع أتباع الشيخ ، وأخذني الصادق جانباً وقال لي إنه كان يدرك ما سببه مجيئه للقصر الجمهوري من ضيق في نفوس العاملين هناك ولكنه لم يكن مأذوناً لإفشاء مهمته ، أما وقد إنتقل الرئيس أزهري للدار الآخرة ، فلم يعد هناك ما يبرر الكتمان ، قال بأن الشيخ الطيب السايح يطوف بجهات كثيرة داخل السودان ، وعندما يزور العاصمة يكون مجلسه عامرا معبقاً بتلاوة القرآن الكريم ، وبالمدائح النبوية وكان الرئيس أزهري يحترم الشيخ الطيب ويعامله كواحد من الأولياء عباد الله الصالحين ، وقد أبدى رغبته في حضور كل جلسة يتم فيها ختم تلاوة القرآن الكريم بحضور الشيخ الطيب ، وكانت مهمة الصادق الحجازي محددة بأن يوصل المعلومة للسيد إسماعيل الأزهري بمكان وزمان الجلسة الروحية التي يحرص سيادته على حضورها ، وبالطبع لم يكن ذلك غريباً على السيد إسماعيل الأزهري الرجل المتدين حفيد السيد إسماعيل الولي .

صلته بالشيخ المجهول :

السيد نديم أحمد البشير عدوي كان ضمن الموظفين بقسم العلاقات العامة بالقصر الجمهوري حدثني انه بعد رجوعنا يوم ٢٣ مايو ١٩٦٩م من كنشاسا بعد الرحلة المرهقة التي سبق الحديث عنها كان المتوقع ألا يحضر الرئيس لمكتبه في اليوم التالي ليأخذ قسطاً من الراحة ، ولكن الذي حدث أن سيادته جاء إلى المكتب بالقصر الجمهوري ولم يكن قد حضر ساعتها أي واحد من السكرتيرين الكبار أمثال أحمد حسين الرفاعي وأحمد رسماعيل أبو ، وتحدث الرئيس في التلفون مع نديم

الذي كان قد وصل لتوه للمكتب ، قال له إن شيخاً سوف يحضر لمقابلة الرئيس فليصحبه على الفور إلى مكتب سيادته ، يقول نديم إنه ما إن وضع سماعة التلفون بجانبه وإلتفت أمامه حتى واجه شيخاً وقوراً مد يده إليه وحياه باسمه « السيد نديم السلام عليكم » فلم يشك لحظة في أنه نفس الشيخ المقصود واصطحبه إلى مكتب سيادته .

يقول نديم ما إن وقع نظر الرئيس على الشيخ حتى نهض من مكتبه وجاء إليه مهرولاً إلى وسط المسافة داخل المكتب ، واندهش نديم من هذا المنظر وجر الباب إليه ولكنه لم يحكم قفله وإسترق النظر من الفتحة البسيطة فرأى الشيخ يهز كفيه ويفتح ذراعيه كأنما يقول الموضوع إنتهى فقال له الرئيس وهو يبسط كفيه متسائلا « ما في طريقة » أي لا توجد طريقة أو مخرج فرد الشيخ واضعاً يده على صدره « ما مني ولكن من عند الله » قالها هو يرفع يده إلى أعلى كأنما بشير الى أمر من السماء .

لم يفهم نديم تفسير ما شاهد وما سمع وخف الخطى إلى مكتبه ، وبعد لحظات إتصل به الرئيس بالتلفون « يا سيد نديم تعال أوصل الشيخ للخارج » وجرى نديم ولكنه لم يجد الرجل وسأل عنه قسم المراسم والحرس فأكدوا جميعهم أنهم لم يروا شيخاً بتلك الأوصاف، فعاد نديم أدراجه ولم يخبر الرئيس وقال في نفسه لا بأس ما دام الشيخ قد وجد طريقه في الخروج مثلما فعل في الدخول ولم يشاهده نديم بعد ذلك أبداً ولا يعرف إسمه لأنه لدهشته لم يسأله عنه عندما فاجأه بالتحية بإسمه .

يواصل الحديث نديم بأن الرئيس إستدعاه بعد ذلك فوجد أمامه الحقيبتين اللتين تعود أخذهما معه يومياً للمنزل وإحضارهما في اليوم التالي ، وطلب من نديم أن يحضر حقيبتين أخريين كانتا دائماً موضوعتين خلف المكتب ، فتحت الحقائب الأربع وصار الرئيس يفتح الأدراج واحداً بعد الآخر ويفرغ ما بداخلها ويناول المحتويات لنديم ليضعها على الحقائب ، ولم يترك شيئا على مكتبه سوى صورة لإبنه محمد وهو صغير السن في برواز من الفضة – فهل نسيها أم تركها عن عمد ؟ الله يعلم . ثم قال لنديم إني ذاهب للمنزل ، كانت الساعة حوالي الواحدة ظهراً ، حمل نديم حقيبتين وحمل العم عثمان الحاجب المعروف حقيبتين وودع الرئيس كل من قابلهم وهو يهم بركوب العربة ولم يكن أحد منهم يدري أنه الوداع الأخير فقد وقع الإنقلاب العسكري بقيادة جعفر نميري فجر اليوم التالي ٢٥ مايو ١٩٦٩م.

لا أود التعليق على هذه القصة وأترك أمرها بين يدي القارئ ليفسر كل واحد ما حدث بطريقته ولكنني أتساءل : من يكون ذلك الشيخ الوقور العجيب ؟ وما هي صلته بالرئيس إسماعيل الأزهري ؟

الرئيس في لحظة تجلي :

عندما كان السيد إسماعيل الأزهري رئيسا للوزراء في الحكومة الوطنية الاولى طلب منه السيد شريف أحمد عمر أستنادا لخبرته الطويلة في المحاسبة أن يمنحه تصديقاً لفتح مكتب لمراجعة حسابات الأفراد والشركات ، فكتب له التصريح بخط يده على ورق مروس من مكتب رئيس الوزراء ومارس العمل بالفعل ، ومضت

سنوات إنتقل فيها السيد شريف للسعودية ، ثم إفتقد ذلك المستند فجاء للسيد الأزهري وهو رئيس مجلس السيادة ، وطلب منه تجديد ذلك التصريح فقال له الرئيس إن الموقف صار مختلفاً ووضعت قوانين تنظم ذلك ولكن الرجل أصر وقال إن رئيس الجمهورية أعلى مكانةً من رئيس الوزراء ، هدأه الرئيس ووعده بأن يتفاكر مع السيد الشريف حسين الهندي وزير المالية آنذاك لتفادي الوقوع في حرج قانوني .

وفي زيارة له مستفسراً عما تم في طلبه وجدني السيد شريف أحمد عمر ممسكا برأسي متألماً من صداع حاد فطلب مني ان أعطيه قرشا واحدا لإزالة الصداع وقال إنه مأذون بذلك وتلا بعض الايات والأدعية وخففت قبضته من ألم الصداع وكانت أصابعه ملتصقة مع بعضها وادَّعَى أن ذلك كان بسبب خروج الصداع من رأسي بين أصابعه ، حملت بعض الاوراق للسيد الرئيس وأخبرته بوجود السيد شريف بمكتبي وبما قام به لتخفيف ألم الصداع عني وكان ذلك منتصف النهار.

في نهاية اليوم حملت بعض الاوراق كالعادة لعرضها على السيد الرئيس قبل مغادرته لمنزله ولما فتحت الباب وجدته في حالة إسترخاء كامل وكان وحده : جلس على الكرسي مستنداً إلى الوراء ويداه ممدوتان ومطروحتان على يدي الكرسي وكان مغمض العينين فتحهما على إثر حركة فتحي للباب ، ولكنه ظل مسترخياً ولم يتحرك ، وعندما بدأت أتحدث عن الأوراق إلي أحملها قال لي بلهجة جادة « إنت قبل ساعتين حكيت عن عمك شريف وأنه أراحك من الصداع . لما تكون عندك شكوى زي دي « أي مثل هذه» ليه ما تكلمني ؟ إنت تستهوني « اي تستهين بي وتقلل من شأني » قلت له لا ياسيدي الرئيس أنا أدخرك لأكبر من ذلك ، قال لي

وهو لا يزال في حالة الإسترخاء وبلهجة جادة « جميل - في هذه اللحظة التي تقف أنت أمامي فيها أطلب أي شئ يخطر على بالك » ، قلت له شكراً ياسيد الرئيس إن شاء الله سوف أحضر مطالبي حسب أسبقياتها وفي مرة أخرى أعرضها عليك ، عند ذلك عدل في جلسته وأنهى حالة الإسترخاء وقال لي جميل ثم إستمع لما عرضته عليه من الأوراق .

جاء التيجاني أحمد حسن لمكتبي ينتظر خروج الرئيس ليصحبه في طريق العودة للمنزل وسألني عن موضوع العم شريف فقصصت عليه موضوع الصداع وما دار لاحقاً مع السيد الرئيس ، ولما علم أنني لم أطلب شيئاً صرخ بأعلى صوته الله الله وعاتبني وقال هذا الرجل ليس رئيساً فقط ولكنه من أولياء الله الصالحين

فقلت له الحمد لله أنا مبسوط ولا أحتاج مثلا إلى ترقية فقال لي « لماذا لم تطلب الذرية » وكان يعلم أنني لم أنجب أطفالاً فقلت له والله لم يدر ذلك بخلدي لأنه ليس من المطالب المألوفة في المكاتب الرسمية ، قال لي التيجاني « واضح أن هذا الرجل كان في لحظة تجلي وضاعت عليك الفرصة » ، وبعد حديث التيجاني إسترجعت في مخيلتي شريط الأحداث تلك الهيئة من الإسترخاء الكامل التي كان عليها السيد إسماعيل الأزهري والتي لم يعكر صفوها الصوت الناتج عن فتح الباب وحركة دخولي إلى أن وقفت أمامه ، واللهجة الجادة التي كان يخاطبني بها والتحدي الذي طلب به مني أن أتقدم بأي طلب يخطر على البال وكل ذلك جعلني مقتنعاً بأن الرئيس إسماعيل الأزهري كان في تلك اللحظة في حالة غير عادية ، وكلما تذكرت في مخيلتي ذلك المنظر زاد اقتناعي بما قاله التيجاني أحمد حسن بأن الرئيس كان مختلياً بنفسه في لحظة تجلي وأشعر بشئ من الرعشة وهذا ما أشعر به الآن وأنا

أكتب هذه السطور ، فهل ياترى خص الله جلت قدرته الرئيس إسماعيل الأزهري بسر من الأسرار التي يختص بها عباده الصالحين ؟

شهادة من السيد أحمد إسماعيل أبو :

ذكرت فيما تقدم أن السيد أحمد اسماعيل أبو من أقرباء السيد إسماعيل الأزهري المقربين إليه وهو الذي نقلت عنه نسب الرئيس لأبيه ولأمه ، وكان من السكرتيرين البارزين للسيد إسماعيل الأزهري وهو رئيس مجلس السيادة ، وكان يرى أن الجو الاسري هيأ له النشأة الدينية والسلوك المستقيم ومراقبته لله في كل تصرفاته ولذلك يعتقد ان السيد إسماعيل الأزهري فيه شئ لله ، حكى لي قصة طريفة قال إنه يشكو من داء السكري ويبذل جهدا كبيراً لاتباع إرشادات الأطباء – وبالطبع على رأسهم ابنه بروفسور صديق أحمد إسماعيل – ويجرى الفحوصات اللازمة من حين لآخر ، قال في ليلة من الليالي رأى في النوم ان الرئيس قدم له كوبا من الليموناده فقال له اعذرني ياسيد الرئيس فأنا بسبب مرض السكري ممنوع من شرب هذه المياه الغازية ، فقال له أشرب وأؤكد لك ليس عندك سكري وفي صباح اليوم التالي كان السيد أحمد إسماعيل على موعد مع إبنه دكتور صديق أخذه للفحص على السكري فلم يجد عنده سكري !! ولله في خلقه شؤون .

التنبؤ بالبترول :

حدثني الأستاذ بشير محمد سعيد أنه رافق السيد إسماعيل الأزهري عندما كان رئيس الوزراء في الحكومة الوطنية الأولى في رحلة الى بريطانيا ، كان ذلك خلال عام ١٩٥٥م بعد ما ظهر من تصريحات الرئيس في الصحف أنه بدأ يميل لمطلب

الاستقلال بدلا عن إتحاد السودان مع مصر المطلب الذي ظل ينادي به الحزب الاتحادي لسنوات طويلة ، وعندما وصل الأزهري الى لندن حاصره الصحفيون بالاسئلة وبدأوا بمشكلة مياه النيل ولعلهم أرادوا توسيع شقة الخلاف مع مصر ، ولكن الأزهري بدهائه أكد لهم بكل بساطة أنه لا توجد مشكلة إطلاقا ، قال « النيل يجري في السودان أولا ونحن نشرب أولا ، إذن ليس هناك مشكلة» .

سأله الصحفيون عن موارد دولة السودان الحديثة فهل بها بترول مثلا فقال لهم بلا تردد بالانجليزية I believe there are oceans and ocans ومعناها أعتقد ان بالسودان محيطات ومحيطات من البترول of petrol in the Sudan فاندهشوا وظنوا أن رئيس الوزراء يعتمد على دليل مادي على ذلك فقالوا له : ما الذي يجعلك تعتقد ذلك ؟ what makes you believe so ? ردد السؤال كأنما يريد برهة للتفكير فقال : Oh yes , what makes me belive so ? becau se والمعني – نعم ما الذي يحملني لهذا الاعتقاد ؟ لانني أحب ان اعتقد ذلك I want to believe so

قال الرئيس أزهري ذلك قبل حوالي خمسين عاما واليوم أصبح إنتاج البترول حقيقة ظاهرة للعيان وتحمل الانباء كل يوم إكتشاف وجود البترول في كل جهات السودان ،هكذا صحت نبوءة إسماعيل الأزهري الموهوب الملهم باستقراء المستقبل .

اتصال الروح بين الشقيقين :

السيد إسماعيل الأزهري له عدد من الاخوة لأبيه وشقيقه الوحيد من والديه هو السيد علي الأزهري الذي كان يختلف عنه في كثير من الطباع والسلوك ولكن ذلك

لم يؤثر على المودة بينهما ، وفي مناسبات عديدة ذكر السيد إسماعيل أن روحه متصلة بروح شقيقه علي وانه اذا انتهت حياة احدهما تبعه الآخر على عجل .

والجدير بالذكر إنه بعد نجاح إنقلاب مايو ١٩٦٩م وضع الرئيس الأزهري في السجن وكلفت لجنة برئاسة المحامي علي محمد إبراهيم المتحقيق معه في اتهامات بالفساد ، فزارت منزل الرئيس بأم درمان وقابلهم شقيقه السيد علي الأزهري وردا على سخريتهم وأسئلتهم التجريمية كان يتابعهم باللعنات والشتائم لوقوفهم مع الاتهام للرجل الذي ضحى في سبيل البلاد حتى تحررت من المستعمر ونال السودان إستقلالاً نظيفاً لا تشوبه شائبة . وكانوا يسخرون من إنفعاله ويقولون له « نحن مستعجلون وما عندنا وقت نضيعه» فرد عليهم قائلاً « بل أنا المستعجل لأنه لم يبق لي من الوقت ما أضيعه معكم » وتشاء إرادة الله أن يصاب بنوبة قلبية أودت بحياته في اليوم التالي مباشرة وكان ذلك يوم الثلاثاء .

حضر الرئيس إسماعيل الأزهري من السجن لتشييع جنازة أخيه وبعد إنتهاء مراسم التشييع أصيب الرئيس بنوبة قلبية حادة نقل على إثرها الى المستشفى تحت حراسة القوات المسلحة وتوفى في يوم الثلاثاء بعد اسبوع من وفاة شقيقه ودفن في اليوم التالي بمقابر البكري بأم د رمان.

دعاؤه وهو بالسجن :

إعتقل السيد إسماعيل الأزهري وسجن عدة مرات في أيام الإستعمار وبعد الإستقلال أيام الحكم العسكري بعد إنقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م وعلمنا انه كان يتحلى بروح الدعابة مع رفقائه ويخفف عنهم ما يعتريهم بعض الأحيان عن

الإحباط والكآبة ، ولكنه بخلاف العادة كان صامتاً أغلب الوقت خلال فترة إعتقاله بعد نجاح إنقلاب مايو ١٩٦٩م فكان عندما يلتقي بزملائه في السجن على مائدة الطعام يكتفي بإفشاء السلام وعند الإنصراف يردد في كل مرة الدعاء « نسأل الله الستر» وكان يقضي معظم الوقت في تلاوة القرآن الكريم.

جرت محاكمات سريعة لبعض قادة الحزب الإتحادي الديمقراطي رفاق الزعيم إسماعيل الأزهري تعرضوا خلالها للتحقير والسخرية وكانت النية مبيتة للإستهزاء بالرئيس أزهري ولكن الله إستجاب لدعوته وأسبل عليه الستر بأن إختاره إلى جواره قبل أن يتعرض لمهزلة المحاكمة التي كان يجري الإستعداد لتنفيذها.

مع ولده محمد وهو سجين بالمستشفى :

قبل وفاة الرئيس بيومين قالت كريمته سامية إن إبنه محمد الطفل جاء لزيارته بالمستشفى فمنعه الحراس العسكر ، وحدثت مشادة كلامية وحسم الموقف أحد الضباط بالسماح للطفل بالزيارة وكان الرئيس يسمع ما يدور فلما إلتقى بولده قال له « لا عليك إن شاء الله أنا أجيكم في البيت بعد باكر» والذي حدث أن الرئيس توفى في ذلك التوقيت ونقل جثمانه للمنزل وصدق وعده لإبنه محمد ولكنه وصل المنزل جثة هامدة.

الصفاء مع السيد علي الميرغني :

تألم الحادبون على الحركة الوطنية من تصدع الحزب الوطني الإتحادي بزعامة الرئيس إسماعيل الأزهري نتيجة إنسلاخ حزب الشعب الديمقراطي منه برعاية

سيادة مولانا السيد علي الميرغني ، وبعد ذلك حدث إنقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م واستمر عهد الفريق عبود لست سنوات أيده في السنوات الأولى حزب الشعب الديمقراطي وعارضه كل الوقت الحزب الوطني الإتحادي ، وإستمرت الجفوة بين الختمية ممن أيدوا حزب الشعب الديمقراطي والإتحاديين إلى ما بعد إندلاع ثورة أكتوبر ١٩٦٤م التي أطاحت بالحكم العسكري .

والسيد إسماعيل الأزهري وهو المسلم المؤمن كان يؤرقه كل الوقت الحصام بوجه خاص مع سيادة السيد علي الميرغني الزعيم الديني الذي يحتفظ له العالم الإسلامي قاطبة بمكانة سامية ، وتشاء إرادة الله أن تخف حدة الجفوة رويداً رويداً مع إنتظام الحكم الديمقراطي وعاد الصفاء بين زملاء الكفاح وإندمج الحزبان من جديد في الحزب الإتحادي الديمقراطي برعاية السيد علي الميرغني ورئاسة السيد إسماعيل الأزهري وإنزاح الهم الثقيل من صدر السيد إسماعيل الأزهري وعادت المياه إلى مجاريها وصار السيد إسماعيل الأزهري يكرر في كل لقاءاته الجماهيرية قولته المشهورة « لولا الأسد الرابض بالخرطوم بحري لما تحقق الإستقلال» ويعني بالأسد السيد علي الميرغني الذي كان مسكنه بحلة خوجلي بالخرطوم بحري .

وعندما إنتقل السيد علي الميرغني للدار الآخرة عام ١٩٦٨م وكان السيد إسماعيل الأزهري رئيساً لمجلس السيادة أشرف بنفسه على تفاصيل برنامج تشييع جثمان فقيد البلاد العظيم حيث حملته كوكبة من رجال القوات المسلحة بالتناوب فيما بينهم مشياً على الأقدام من جنينة السيد علي الميرغني بالخرطوم عن طريق كوبري النيل الأبيض إلى أم درمان ثم عن طريق كوبري شمبات إلى الخرطوم بحري حيث ووري الثرى في الجزء غربي مسجد السيد علي الميرغني الجامع

واشترك السيد إسماعيل الأزهري في حمل جثمان الراحل العظيم مع نجليه السيد محمد عثمان والسيد أحمد إلى مثواه الأخير

كتب الأستاذ بشير محمد سعيد « وفاة الزعيم إسماعيل الأزهري كانت في مساء العشرين من أغسطس عام ١٩٦٩م ، وتدفقت الجماهير من كل حدب وصوب نحو داره يهزها الحزن ويستبد بها الغضب ، وأقام له المواطنون مأتماً في كل بقعة من بقاع السودان، وخرجت الجموع في موكب رهيب تشيع جثمانه تعبيراً منها عن عرفانها بأفضاله وجهاده وعطائه وحق لها أن تحزن فإسمه قد إرتبط بتاريخ السودان أوثق رباط ، وأحسن قيادته ومنحه قلبه وعقله وروحه ، وذاد عنه في قوة وفتوة ، وكان مكانه في كل صولة وجوله الصدارة » .

كان السيد محمد عثمان الميرغني خليفة والده على رأس المشيعين واشترك في إنزال جثمان فقيد البلاد داخل القبر وخطب في الجموع الهادرة التي إحتشدت في المقابر وما حولها مجدداً العهد بحمل الأمانة وقال إن الراية التي رفعها السيد إسماعيل الأزهري لن تسقط أبدا ..





- عبد الرحمن أحمد المهدي



- من مواليد أم درمان

المراحل الدراسية:

- أبوروف الاولية
- أم درمان الاميرية الوسطى
- وادي سيدنا الثانوية
- كلية الخرطوم الجامعية
- بكالوريوس جامعة لندن (BA)
- ماجستير جامعة ييل الامريكية (MA)

الخبرة العملية:

- وزارة المالية والاقتصاد
- بنك السودان
- مدير معهد الدراسات المصرفية
- مدير مكتب الرئيس إسماعيل الأزهري
- مدير عام بنك الخرطوم

السعر ٥٠٠ دينار

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٦٩